موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين

العلامة
محمد بهجة الأثري



تأليف: حميد المطبعي

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٨٨

موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين

الجزء السادس

العلامة محمد بهجة الأثري

تأليف
حميد المطبعي

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٨٨

هذه الموسوعة ..

منذ ربع قرن انصب تفكيري على تاليف هذه الموسوعة ، وانقطعت الفكرة ثم بدات الآن ، وهذه الموسوعة لها صفة غير صفة الموسوعات الصادرة في تراجم الاعلام ، وصفة هذه الموسوعة ، هي انها تلمّ بالاعلام إلماماً متكاملا في النفس ، وفي البنية ، وفي هذه العناصر التي تركب الكاتب او المفكر تركيباً ، يراعى فيه التسلسل المنطقي لولادة الشخصية ، والتطور التاريخي لافكارها ، وكانت موسوعات هذا العصر ، او العصور السالفة ، لاتغطي إلاّ الشكل الخارجي للاعلام ، كتبهم ، وشهادات ميلادهم او وفياتهم ، بمعنى ان الكتابة عن الشخصيات الثقافية في تلك الموسوعات لاتخرج عن التراجم التقليدية ، وكان الكتاب والمفكرين هم شخصيات نمطية ، ولدت وعاشت كاي سياق بشري آخر ، مع ان تاريخ التراث كان يحدثنا باسهاب عن اهمية ونبوغ واستثنائية قوافل الفكر في الحياة العربية . وهذا التفرد الذي يتميز به المفكر العربي خلال عصوره ، جعلني افرد له في هذه الموسوعة المساحة المنطقية المتوازنة مع دوره في التاريخ ، فاتحرى ، وقد تحريت مكوّنات الكاتب النفسية وصلاته بالاخرين ، ودوافعه الغريزية للكتابة

والإبـداع ، ثم قمت بمجادلة آرائـه وافكاره ، تبعـا لسيـاقـه التاريخي ، ووضعت هذا الجدل في خدمة هدف المـوسوعـة ، وهو ان يكون القارىء في صميم المترجم له ، فيصل اليه بـلا جسور ، ويتعرف رؤيتَهُ او فلسفته بحيـوية حـواسه ، حتى لايبقى بين القارىء وهذه الشخصية المترجم لها اية عقدة من عقد الفكر الغامضة .

انا وجدت الموسوعات القديمة والموسوعات المعاصرة في تراجم الأعلام ، لاتقدم إلا إعلاناً عن الشخصية ، لاتشرح فيه فكراً ولا تفلسف فلسفة ، فهو مجرد إعلان عابر ، اوطيف صامت لايدور او ينفذ إلّا في المسام المظهرية للشخصية ، فهو إذن إعلان مجحف بقيمـة وعظمـة المفكرين والكتـاب الذين اسسوا لنـا مجتمع القيم ، وبنوا في محيطنا السلّم المثالي لمجتمع عـربي ، مفكر ، عاقل ، مدرك ، يدرك ويعقّل مطالبه الحضارية ، طبقـاً لانجازات العقل التركيبي الذي تتصف به فلسفتنا في الحياة .

واخترت ، ان تكون هذه الموسوعة ، شاملة في مقاصدها ، لأن مفكرنا شامل في افكـاره ، وشامـل في تصوراتـه واحلامـه واشواقه ، وانا لابد من ان اكون شامـلاً مع الشخصيـة التي ابتغي ترجمتها ترجمة متكاملة ، فاوجه لها نقداً ياخذ في سياقه

العام ، الطابع الاثنوغرافي ، وهو الذي يتصل بحياة الشخصية الاجتماعية ، وادخلها في الدراسة الاثنولوُجية، وهي الدراسة المقارنة الباحثة في علاقة الشخصية مع محيطها البيئي او الحضاري او السلوك الجمعي ، وكما هو ثابت ، فان القارىء العام بحاجة دائماً الى مدلول منطقي استدلالي لمعرفة ابعاد المفكر العربي ، ومستوى علاقته بالحياة ، وفي مختلف شؤونها العقلية او الانثروبولوجية ـ التاريخية .

وكنت في كل تراجمي لهؤلاء الأعلام ، متعاطفاً معهم ، إلا في حالات ، ارى فيها الكاتب يشذ عن مقياس احصائي ، او يقف موقفاً متذبذباً بإزاء قضية ما من القضايا التي تشغل ذهن الحقبة الزمنية التي نرتادها ، فأحاول فيها ، او اتوصل وهذه الشخصية التي ابحث فيها ، الى قناعة مشتركة من الحسيات العامة ، حتى نجعل هذا القارىء الذي يقرا هذه الموسوعة ، متداخلاً ، كاشفاً ، لامتفرجاً في سديم ، ومع هذا ارضيت نزاهتي في اعلامنا ، واديت الزكاة لتاريخهم ، فنحن كلنا ، مدينون لأعلام العراق ، فيما ابدعوا من علم ، وفيما انتجوا من عقل ، وفيما ارادوا ان يكملوا الشوط الطويل الذي ابتدأت به مدرسة بغداد في التاريخ ، وفي بناء التاريخ الانساني .

لم اتبع في هذه الموسوعة ، النهج الابجدي ، او الانتقائي لاعلام العراق ، وانما نهجت فيها نهج البحث في الشخصيات البارزة في التاريخ المعاصر ، كلما توافرت في هذه الشخصية او تلك ، مصادري في دراستها والتبحر في مظانها . وكنت في هذا النهج ، ابتعد عن النمطية التي اتسمت بها الموسوعات القديمة والتراجم المعاصرة التي خلطت في المفكرين خلطاً ، وباعدت وقرّبت فيما بينهم تحت ثقل السياقة الأبجدية ، التقليدية ، الصارمة ..

وأرى انني أول من ابتكر هذا النهج في تاريخ العمل الموسوعي العربي ، وأول من ابتدع النواة العلمية - الموضوعية لمؤرخ المستقبل ، الذي سيجد إن طال بي الصبر في تراجم اعلامنا ، سفراً خالداً ، زاخراً بصور التاريخ والمواقف والأحداث ، يمكنه من ان يدرس فيه حياة مجتمع او حقبة تاريخ من هذا المجتمع ، او حالته العقلية التي « تبلورت » بجهد إبداعي تركيبي - تاريخي .

وآمل أن لا يكفرني مؤرخ المستقبل في شيء فعلته في هذه الموسوعة ، فقد جهدت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ثم تنزّه بي الهدف !

حميد المطبعي

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الفصل الأول

الشخصية المتميزة



حميد المطبعي مع العلامة محمد بهجة الأثري

وكلما يمتد اليه عقلي ، ارى انه ينحدر من سلالة العصر العباسي الذهبي هذا الوجه الوقور الذي تظلله سحنة العصور ، يكاد يختصر حقبة ادبية ليس فيها الا لغة صافيـة ، هي لغة اللغويين الروّاد ، ونحوٌ هو نحو النحويين الرواد ، وسيرة ما احكم فصولها ! عبرت عن أمانة الحفيد بالجد الحفيد ، ونقلت لنا تراثنا بهمة لاتقل وزنا عن همة الألسنة العظيمة في هـذا التراث ، بل ان (محمد بهجة الأثري) في هذه السيرة ، وفي هذه اللغة كان واحدا من القلائل ، يبني مجد الماضي بتؤدة ، ويحوّل هذا الماضي الى عصر جديد بتؤدة ، وكأنّ قدر تـراثنا فرض عليه ان يكون لسانا متميزا ، وداعية من أشهر دعـاة اللغة في هذا القرن ، ومترجماً علم اللغة وبحـوره الى منابـر العرب ومجامعهم العلمية ، حتى ان ملوك العرب لحظة قَرَأُوه أو شـاهدوه في محـافلهم لقبوه بـالألقاب الحسنى ، وأنصفـوه بأوسمة ، وقالوا : هذا تذكارنـا ، وهو تـذكارُنـا في ان يكون الماضي ليس عبرةً حسْبُ ، وإنما رجع صدى قويّ فينا ، وان هذا الماضي الذي كتبه (الأثري) أو الذي جعله مادة حيوية في بنيان العصر ، كان مثار جدل في أكثر كتبه ، حفزنا الى أن ننعم بالأجمل والأغنى والاشمل ، ووضعنا في تيار مفتوح ، غايته

الاستدلال العقلي ، وحقيقته أن تكون لنا دائما وثبة الى قانون العقل .. وانتصر عقله في المعاناة !

التلاقي

وعلماؤنا وهذا (الأثري) يتلاقون في أكثر من خاصية وطابع متميز ، في هذا الجد الصارم والاجتهاد ، وفي السماحة والبذل . ولكنه يشبه آخرهم في الزمن ، في هذه الخصال مجتمعة ، هو السيد العلامة (محمود شكري الآلوسي) ، نابغة عصره ورائد الفكر الاسلامي الاصلاحي . وقد يكون له شيء من مشابهته، أو قد يكون شبهه به قريبا في بعض خصاله هذه طبعا لاتطبعا .. ومن المصادفات النادرة أن (الأثري) كان له حظ لقاء هذا العالم الآلوسي والتلمذة له والافادة من علمه وسلوكه وترفُّعه وتساميه .وكان الآلوسي من أذكياء البشر ، حادّ الطبع ، سليم القلب ، جلدا صبورا ، نهما في طلب العلم ، منذ أن نشأ الى أن أدركته المنية ، وقد بدأ يؤلف في العقد الثاني من عمره ، وتجلى نبوغه في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب) - ثلاثة اجزاء كبار - ألفه وعمره ثلاثون سنة ، استجابة لدعوة (أسكار الثاني ملك السويد والنرويج) ، فبزّ

به تآليف كل من استجابوا لدعوة هـذا الملك الأوربي ، ومنح جائزة السبق ، فكان اول عالم عربي يحصل على جائزة أوربية كبيرة القدر ، ولم يحصـل مثل ذلك لغيـره من علماء العـرب والمسلمين الى هذا اليوم . وقد رأى (الأثري) في حضرة هذا العالم الآلوسي انه يؤلف نوعين من التآليف : ١ ـ ألف جماعة مرموقة قادت النهضة اللغوية والأدبية في العـراق ٢ ـ وألف ستين كتابا أو يناهز هذا العـدد ، في الاصلاح الاسـلامي ، وتاريخ العرب ، والأنساب ، واللغة ، وأجاد الاختيار ونـوّع كما أجاد التأليف وبرع .. وفي هذا المدرج احتفل (الأثري) بنشأته العلمية ، وصار يفتخر أنه تلميذ هذا المدرج عن وعيٍ بذاته العلمية ، وعن (استقلال) في حرفة الاجتهاد !

مدرسة

وأنت اذا اختـلفت الى جـامـعـة أو مجـلس للبحـث والمناظرة ، وجرى حديث اللغة وتحقيق الكتب في هذه الجامعة وفي هذا المجلس ، ترى (الأثري) شاهدا ، أو يؤخذ (شاهدا) عـلى علة الفصل وحـل الإشكـال ، وهـذا لايقبـل الجـدل . فالأثري ، بعمره اللغوي المديد أنشأ مدرسة للفصحى ، ووضع



محمد بهجة الاثري مع اديب مصر مصطفى صادق الرافعي في طنطا سنه ١٩٣٦

فيها تقاليده الخاصة في مزاج اللغـة ، وانتشر هذا (المـزاج العلمي) في أواوين الدرس حيث طلبة الجوامـع ، وانتشر في المدارس الرسمية ، حيث كان الأثري فيها أستاذا خلال أحد عشر عاما ، ربّى جمهوراً واسعاً من تلاميذ العلم ، أفادوا منه دروس العـربية والأدب والشعـر وعلم الأخلاق ، الى جـانب التوجيهات الوطنية والعلمية . وقد نشأ منهم كتاب ومحامون وقضاة ومعلمون وسياسيون ، ومن السياسيين من قدر لهم أن يرأسوا الوزارات ، ومن قدر لهم ان يكونـوا وزراء ونوابـا ، ومنهم من أبلوا البـلاء الحسن في الجهاد الوطني ومقـارعـة الاستعمار وذاقوا من ذلك ماذاق (هو) من النفي والسجن .

وهـؤلاء معروفـون يحفظون للأثـري لسـانـه ويقيّـمـون سمعته .. هي مدرسة التراث مدت أغصانها الى عرب المشرق وعرب المغرب ، وهي مدرسة الصفـات والقواعـد والأحكام . وبعض هذه الصفات صارت تعرف بصفات (الأثري) ، نهض فيها مجددا ، وبرع فيها حاكما لايخرج فيها عن سنة من سنن القرآن ، ولاتزاغ فيها أصوله وفروعه عن تراث النوابغ !

مشهور

اذن هو مشهور في هذه الآفاق العلمية ومدارسها ، وان

اختلفت في (اجتهاداتها) ، وكتبت فيه أقلام عن (صفاته) و (لوذعيته) ، وترجمت له كتب السير والتراجم كالذي جاء في كتاب (لب الألباب) وهو أول ماكتب فيه في بداية العشرينات ، وفي كتاب (من هو ؟) باللغة الانكليزية ، وكتاب (شعراء العراق المعاصرون) ، وكتاب (الشعر العراقي الحديث) ، وكتاب (أعلام الأدب والفن) وفيه تفصيل أوسع .. وممن كتبوا فيه الشاعر المصري عزيز أباظة ، والدكتور شوقي ضيف ، والعلامة محمد كرد علي ، والعلامة المجتهد السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، والعلامة الشيخ عبد القادر المغربي ، والدكتور ابراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، والاستاذ محب الدين الخطيب صاحب الزهراء والفتح ، والدكتور تقي الدين الهلالي من علماء المغرب ، والأستاذ أنور الجندي ، والمؤرخ عجاج نويهض ، والأب انستاس الكرملي ، والأستاذ عيسى أسكندر المعلوف ، والأستاذ مسعود ندوي من علماء الهند ، والاستاذ ثروة أباظة ، والدكتور عدنان الخطيب ، والشاعر معروف الرصافي ، والكاتب ابراهيم حلمي العمر .

هؤلاء اعلام ، وبعضهم من اعلام اليقظة الفكرية ، كتبوا في (الأثري) لنبوغ فيه اكتشفوه او لابتكاره في اساليب العربية ، او لمصنفاته في العلوم الانسانية . والى جانب ذلك ثمة تقاريظ كثيرة لكتبه في الصحف والمجلات ، ونقول عنه ، وقصائد من افراد متميزين من شعراء العراق والسعودية ومصر والسودان والبرازيل .. أما الاذاعات فله فيها احاديث طوال ، بينه وبين المستمعين ، وتردد اسمه غير مرة في اذاعة مصر واذاعة (مونت كارلو) ، والاذاعة الامريكية العربية . وفي سنة (١٩٨٦) استفاض الحديث عنه في الإذاعات العربية والاسلامية والعالمية عندما منح (جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي) كما استفاض ذكره في الصحافة العربية والعالمية .

ومنذ عنفوان شبابه في نحو سنة ١٩٢٢ الى هذه السنة (١٩٨٦) نشر الأثري مئات من البحوث والمقالات في مختلف أغراض الكتابة ، الى جانب مؤلفاته واشعاره وخطبه واحاديثه وممارسة الاعمال التدريسية والتفتيشية والادارية .. وأسفاره التي كتب فيها أجمل ذكرياته عن شعوب الأرض . وهناك في العلامة (الأثري) خاصية معروفة ، وهي انه لاينشر بحوثه أو

مقالاته الا في مجلات (مرموقة) ، أو في صحف سياسية أمْلتْ عليه الظروف الوطنية ان ينشر فيها في بداية العقْد الثالث من هذا القرن (سنة ١٩٢٢) . وقد لاحظت هذا (الميل) فيه في أثنـاء تصفحي لتلك المجلات والصحف في مكتبـات (المجمع العلمي العراقي) وفي (المكتبة الوطنية) وفي (مكتبة المتحف العراقي) وفي غيرها من دور الثقافة .. وابتداء من عام ١٩٢٢ نشر في الصحف المحليـة : دجلة ، والاستقلال ، والعـراق ، والعـاصمة ، والمفيـد ، والعالم العـربي ، وصـدى العهـد ، والزمـان والاخاء الوطني ، والامـل ، والأهـالي ، والشعب ، والطريق ، وغيـرها .. وفي المجـلات المحلية : لغـة العـرب ، والناشئة ، واليقين ، والمعْرض ، والحرية ، والأماني ، والعالم الاسـلامي ، ومجلة المجمع العلمي العـراقي ، ومجلة المعلم الجديد (القديمة طبعا) ، والعقاب وغيرها .. وكانت مقالاته تتصـدر صدر صفحـات هذه المجـلات ، وأكثرهـا يقدم لهـا بمقدمات على نظرية الصحافة المصرية (القديمة) في تقديم الأسماء الأدبية الكبيرة الى القراء ..

ويوم عرف (الأثري) وطار (صيته) الى أرض العرب في اواسط العشرينات ، ويوم اشترك في ندوات الفكر والسياسة



الاثري مع اصدقائه الرصافي والزهاوي واحمد عزة الاعظمي في الثلاثينات !

منذ أواخر العشرينات ، طلبت منه المجلات العربية ان يكتب لها وهي تحتفل به احتفالا يليق بمكانة رائد من رواد اليقظة الفكرية ، فاستجاب لها وبعث اليها بنشاطه العقلي . ومن هذه المجلات : مجلة المنار ، والزهراء ، والفتح ، ومجلة الأزهر ، ومجلة الرسالة ، وهي المجلات الكبيرة التي كانت تصدر بمصر ... ومن المجلات السورية : مجلة المجمع العلمي العربي ، ومجلة التمدن الاسلامي ، ومجلة الاعتصام ، ومن المجلات المغربية ، مجلة الأكاديمية ، ومجلة البحث العلمي ، ومجلة دعوة الحق ، ومجلة المناهل ، كما نشر في بعض مجلات السعودية (الدعوة) وفي الكويت (الايمان) وفي لبنان (الكشاف) ، ومن هذه المجلات والصحف ما استحسنت له بحوثا ومقالات منشورة ، فأعادت نشرها من غير علمه ، كما فعلت (الاهرام) فأعادت نشر بحثه في الرجز وأحد اعلامه الثلاثة في العصر الاموي ، ونعني به : أبا نجم الفضل بن قدامة العجلي ، وكان الأثري قد نشر هذا البحث في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .. وكما فعلت مجلة البحث العلمي فأعادت نشر بحثه (ذرائع العصبيات العنصرية في اثارة الحروب) الذي نشرته مجلة المجمع العلمي العراقي وكما

فعلت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، فاعادت نشر بحثه في نفي مزاعم البناء على التوهم في اللغة العربية الذي قدمه الأثري الى مؤتمر مجمع اللغة العربية بـالقاهـرة ، وكما فعلت مجلة المجمع العلمي العراقي فأعادت نشر بحثه في (الآلة والاداة) في ضوء عبقرية اللغة العربية الذي قدمه الأثري الى مجمع اللغة العربية في القاهرة ....

ومن صفات (الأثري) النفسية في النشر ، أنه لايزاحم احدا على شهرة ، ولا يسعى الى (تلميع) اسمه ، فله من قوة النفس واحترام الذات (و .. ضرورات الشخصية الأخرى) مايمنعه من اللعب في (شهرة الاسم) .. وكان في ماضيه كما في حاضره زاهدا في ذيوع الاسم ، وكانت الشهرة تأتيه مطيعة في جلال !

المنبر

وبدأت مواهبه الاجتماعية تتدفق في المجتمـع العراقي منذ العام ١٩٢٨ حين انضم الى حركة الاصلاح ، وكان يفكر في هذا المجتمع العراقي وحاجته الى ان يقوم بناؤه الجديـد على اساس أخلاقي متين يوحد الجماعات ، ويقوي فيهـا حاسـة التضامن والتآزر ، ويحدوها جميعـا على افعـال البر منـزهة

المنشأ وكريمة الغايات .. وكان قد زار (القاهـرة) في صيف ١٩٢٨ زيارته الأولى ليتعرف احوالها ويفيد منها بعض مايفيد به (العراق) ، وطاف على معاهدها العلمية والأدبية ومعـالمها الاجتماعية ، فراقته منها واستبدت باعجابه جمعيات اجتماعية وماتحفل به من النشاط الثقافي والرياضي وتلاقي الأعضاء في باحاتها على هدى من الاخوة والصفاء ، فعاد الى (بغداد) وفي نفســه عزم أن ينشىء مثلهـا ببغداد وأنشـأ واحدة من هـذه الجمعيـات ، فكانت ذات طابـع اسلامي أخـلاقي ، هدفهـا احـداث الوعي الاجتمـاعي في صفـوف الشبـان بـالتجمـع والمحاضرات ، وأسس باسمها (مجلة العالم الاسلامي) ولقي هـو ورهطه من المتنـورين ، من المجتمـع البغـدادي اقبـالا وتعاطفا ، وامتد نشاطه الى حاضرة (البصـرة) وبعض مدن الشمال ، في محاضرات اسبوعية وموسمية . وكان ينتهز كل سانحة من سوانح الحياة تمر بالعراق او بالعالم الاسـلامي فيعطيها مـواهبه . فيـوم أعلنت فرنسـة في المغرب مـاسمته (الظهير البربري) لشق الوحدة هناك شقين متعادين وما كان العرب والبربر الا امة واحدة ألفت بينها العروبة وحضارتها بالمصاهرة ، ثار (الأثري) وجماعته على هذا (الظهير) وأعلنوا

نكيرهم في البرقيات والصحف .. ومن أمثلة جهاده في هذه الجمعية التي اقامها على أرض واسعة واستأجرها من الأوقاف ، احتفاؤه بزعماء المسلمين كلما قدم واحد منهم الى العراق ، فقد أقام (الأثري) وجماعته حفلة فخمة عندما قدم اليهم الزعيم الهندي المشهور (شوكة علي) أحد مؤسسي جمعية الخلافة في الهند ، فخطب فيها وخطبوا مثله ، وهنا في هذه الحفلة انشد (الأثري) قصيدة ضمنها هموم العراق وهموم المسلمين في الهند ، تحت سيطرة الاحتلال . وقدم العراق وفد المؤتمر الاسلامي العام في الثلاثينات ، المؤلف من مفتي فلسطين الاكبر السيد محمد أمين الحسيني ومحمد على علوبة باشا الوزير المصري في طريقه الى الهند ،فأقام الأثري له احتفالا كبيرا ، خطب فيه خطبة جامعة قصدا الى تعظيم شأن القضية الفلسطينية . وقدم العراق طلعت باشا حرب الزعيم الاقتصادي وباعث اليقظة الاقتصادية وموجدها في مصر ، فاحتفلوا به ، ونقل (الأثري) ـ في خطبة مسهبة ـ الى العراقيين صورة جهاده في تحرير الاقتصاد المصري من هيمنة المستعمرين ... وتوفي في مصر شيخ العروبة احمد زكي باشا (أحد اعمدة العلم هناك) .. والعالم اللغوي والباحث المتعمق

الشهير احمد تيمور باشا .. والشاعر الكبير احمـد شوقي .. والعلامة المفسر المحدث المصلح المجدد السيـد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وخليفة الامام محمد عبده في تجديد الفكر الاسلامي ، فأقام (الأثري) ورهطه لكـل واحد منهم حفلا فخما ، شارك فيه (الأثري) خطيبـا وشاعـرا ، ونقل صور جهادهم في التجـديد الى الجمهـور العراقي ليـأتسي به المخلصون ، ولتكون هذه الحفلات وسائل لتمازج العلاقات بين العراق والوطن العربي .. وكان منبره عاليا !

جمعيات

واتسع المنبر .. واذا هذا (الأثري) العلامة في شبابه يصبح داعية الى تحديث الصناعة في بلده ، فيؤسس هوورجال اخيار (جمعية المنتوجات الوطنية) سنة ١٩٣٠ ، ويشارك في وضع قانونها ، وينشد في حفل افتتاحها قصيدة في الحضّ على تقوية الحركة الصناعية في العراق .. تبدأ بانتاج المنسوجات وتستمر في انتاج كل مايحقق الاكتفاء الذاتي ، وجاء في هذه القصيدة :

قلب عـلى الايّـام وار وجـوىً كـدُفّـاعِ الشّـرارِ

يــرمي بـك المــرمى القصيّ ويـسـتـجيـشـك للسـفـارِ
مــابــين أجــواز القِــفــا ر وبــين آذيِّ البــحــارِ
لاتــســتــقــرُّ بــك النــوى كـــالشمس في الفلك المُــدارِ
أنــفــاً مــن المــثــوى ويــأ نفُ منـــه ذو الهممِ الكبــارِ
لله مـــأربُــك الخـــطيـــرُ ، ومــاتكابـدُ في الخِطارِ !

وأنشأ ، هو وفئة من الشباب (مشروع الفلس) وهذا المشروع كمشروع جمعية المنتوجات الوطنية ، من ارهاصات اليقظة التي تتقدم النهضات القومية عادة عند جميع الأمم .. بدأه المصريون وسموه (مشروع القرش) ، ووصل صداه الى (العراق) ، واستثار بعض الشبان والمفكرين ، وكانت الغاية منه في فكرهم تنمية موارد البلد ، وبث روح الاقتصاد في الناس ، وان لاتبذر الأموال في الخارج ، وأن يفرد قسم ممّا يتجمع في صندوق الجمعية للآيتـام والأرامل وتـزويج الفقيـرات . أما القائمون به فنفر من الشباب ، استعانـوا بفريق من (رجـال السياسة) ورجال المال والأعمال ، واختير لرئـاسة المشـروع السيد ناجي شوكة (وزير الداخلية آنئذ) ولعضويته السيد نصـرة الفـارسي (من الوزراء والقضـاة آنئـذ) وقـاسم الخضيري من الأعيان وكبار الماليين ، والسيد حسن رضا من

كبار المحامين ، والسيد حيدر علي سليمان من شباب المدرسين .. ومحدّثي (الأثري) . وظاهر أن هذا المشروع (كما تفيد وثائقه) لم يزد على الارهاص ، اذ البلاد لم تكن مستعدة لمثل هذا الشأن في ظروفها السياسية السابقة ، والنشيطون للعمل الدائب والمثابرة ، كانوا قلة قليلة ، والى هذين العاملين الخطيرين مردّ خفوت كثير من الحركات التي اعتملت بواعثها في رؤوس بعض المفكرين ، فلم يكن لهم من زمنهم عون على تحقيق مايصبون اليه من الخير ..!

وفي بحر الثلاثينات شارك الاثري في تأسيس اكثر من جمعية اصلاحية ، منها : الجمعية الخيرية الاسلامية ، وكانت تعنى بايواء اليتامى وتربيتهم وتثقيفهم وتعليمهم بعض الصناعات .. وجمعية الطيران العراقية ، وجمعية الدفاع عن فلسطين . وله في (الطيران الجوي) كراس يتابع فيه حالة الطيران عند العرب منذ نشأت فيهم فكرة (الطيران) ، . وهو بحث ظريف وممتع فيه الخيال بقدر التاريخ ، وفيه هذه الفكرة عن (الطيران) التي تمتد من العرب الى شعوب الأرض الاخرى .. وأذكر اني سألت (الأثري) بعد قراءتي لهذا الكراس ووثائق نشاطه الاجتماعي في هذه الجمعيات



حفلة الصلح بين الزهاوي والرصافي سنة ١٩٢٨

الواقفون من اليمين : علي محمود الشيخ علي ، الشيخ بهاء الدين النقشبندي ، جميل المدفعي ، طه الراوي ، موفق الألوسي ، رؤوف الكبيسي ، عبدالمسيح وزير ، ابراهيم كمال ، محمود صبحي الدفتري ، أحمد حامد الصراف ، طه الهاشمي ، مزاحم الباچه‌چي ، علي ممتاز الدفتري ، عبدالعزيز مظفر ، عبدالله الشواف ، ومحمد بهجة الأثري ..

والجالسون : عبدالعزيز الثعالبي ، الرصافي ، الزهاوي ، عطاء الخطيب ..

والجالسان على الأرض : رفائيل بطي وتوفيق السمعاني .

الاجتماعية ، عن (الدوافعِ التي دفعته ؛ وهـو الذي شغف باللغة وصار عالماً فيها) الى تأسيس الجمعيات الاجتماعية ، فقال :

: أنا جلت في كل ميدان يجلب الخير والنفع الى العراق والبلاد العربية والاسلامية ، أو يدعو الى تثقيف أبناء الوطن ، أو يوجد في الوطن القوة وأسبابها التي تحميه ، وكـل ما من شأنه الارتقاء بفكر الأمة وعلمها وأدبها وفنونها وصناعاتها ، والقوة اية قوة ، أصل من أصول العقيدة ، على ماقرره الإسلام من الاحتفـال بها ، لا للعـدوان على الآخـرين ، ولكن لصـد العـدوان عن النفس والعرض والمـال .. ويـلاحـظ من الآيـة الكريمة : (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) هذا التنكير في لفظة (قوة) وافادته العموم ، والمتابعة ، والتطوير ، والتنويع ، ومـراقبة مـايستحدثـه الأقـويـاء الطامحـون الى السيـطرة والاستغلال من أنواع القُوى ، لإحداثِ مثله أو ماهو أقـوى منه .. على قاعدةِ « إنَّ الحديد بالحديد يُفْلَحُ » ، اي شق ، كما تقول العرب ، ويدخل في اوليات القوة التي يدعو اليها القرآن وعمومها : القوة البدنية ، والقوة النفسية ، والقوة الأخلاقية ، وقوة الوحدة والتآزر المطلق والتناصر في السراء والضـراء ،

وبدون هذه الخصال والمثل العليا ، لاتنفع صناعة السلاح ان لم تجد منها عونا ونصيرا ، وقديما قال الشاعر العباسي :

فـخـذْ من حـلْيـة السـيـ ـف وصُغْـهُ لك خلخـالا !
فـمـا تـصـنـع بـالسـيـ ـف اذا لم تـك قـتـالا ؟!

السياسي

وهذه الجمعيات الاجتماعية كانت النافذة الوحيدة التي يطلُّ منها الأثري على عالم السياسة ، لكنها السياسة الجهادية المؤمنة بحق الأكثرية في الحياة ، وليست السعي الى برلمان أو وزارة ، يغازل المال أو الجاه ، فجاهد في هذه السياسة في مؤتمرات الأمة في مصر والقدس وبغداد ، وكان صوتا برنين واضح في الدعوة الى التحرر وسعادة العرب والمطالبة بتوفير الخبز . وفي شعره كان يطالب بالحرية جهرا ، حتى اذا قامت انتفاضة الشعب العراقي في مايس ١٩٤١ كان (الأثري) فيها لسانا جريئا ، في الاذاعة ، وفي الصحف وفي مؤتمرات الجوامع والبيوت الكبيرة ، وانتشرت قصائده في هذه الانتفاضة كالضوء في العاصمة وفي المدن البعيدة ، وأخذ الطلبة يحفظونها في مدارسهم ، ورتبوا من أبياتها ومقاطعها أناشيد تردد في لحظات الهياج والخطابة ، وساد الأذناب هلعٌ شديد ..

شيّعت، يـا وطني العزيـز جنازة صنعـوا بأيـديهم لهـا الحـدباءا
أنا لا أقول :(الى الجحيم) فما اهتدتْ إلّا إليـهـا مـسـلكـاً وثـواءا

وتخفق ثورة مايس ولم تحقق غايتها ، واذا (الأثـري) يقاد مكبلاً الى المعتقلات الثلاثة ، الفاو ثم سامراء ثم العمارة ، واذا هذه الروح السمحة والأخلاقية العالية والفكرية الملتهبة تتحـول الى بركـان داخل هـذه المعتقلات ، يتفجـر بالشعـر والوطنية ، والنبل وحماسة الأجداد .. واذا هذا العلامة الذي كل حياته كتاب موصول الحلقات يصنع في هذه السجون منبرا شامخا يعلم فيه نزلاء السجن علوم العربية ، ويدرسهم النحو والمنطق ، ويعلّمهم قول الشعر ، وصناعة الشعر بنفس الثائر الوطني ، وليس بنفس السجين القاعد ، وهو فرح بضمير ، وفرح بهذه المعاناة :

قل للعدو النذْل : ماغرَّ النُهى فحسبتنا ضعفاء أو جبناءا ؟
إنّا بنو الموتِ الزّؤام ، اذا دعا داعيه ، طرنا نحوه بُسلاءا

وثلاث سنوات أمضاها في سجون السياسة الانكليزية ، لكنها السنوات التي ازدهـر فيها علمـه بالسيـاسة وبحكمـة السياسة ، واستقام له فيها الوعي بالسياسة !

وللأثري أوراق في حركة مايس ، دوّن فيها ذكرياته في

المعتقلات ، منثورة في كتب قديمة في مكتبة البيت ، لو جمعها لاستطاع أن يقدم لنا كتابا تاريخيا فيه أدب ومناظرة ونظرات في الحياة السياسية في العراق .. وتقول احدى هذه الأوراق :

«ولما قامت ثورة الجيش والشعب على الانكليز والبلاط الملكي في أيار ١٩٤١، شاركت فيها بشعري حتى اذا أخفقت وتغلب الانكليز، كان الثوار هدفا للمطاردة والتنكيل لكن السيد المدفعي رئيس الوزراء لزم جانب التسامح مع الادباء والشعراء وامثالهم ورفض التنكيل بهم. فأسقطوا وزارته وجاؤوا بنوري السعيد الى دست الرئاسة فبادر من اول يومه بالبطش وفصلني من الوظيفة مدة خمس سنوات ، ونفاني في الرعيل الأول (هم أربعون شخصا بحسب وثائق تلك المرحلة) .. في منتصف ليلة ٣٠ تشرين الأول ١٩٤١ الى (معتقل الفاو) في أقصى الجنوب سجينا بين السباخ والمستنقعات ، وكدت أهلك من رداءة الجو ، فنقلت الى (معتقل سامراء) ثم الى (معتقل العمارة) وكانت جملة ايامي في هذه المعتقلات ثلاث سنوات مُجرَّمات ، خرجت بعدها في ٢٧ ايلول ١٩٤٤ مريضا ، على انني أفدت من هذا الشر خيرا كثيرا .. أفدت معرفة الطبائع

وسلوك طبقات الناس المختلفة ، وأفدت من القراءات لكتب لم تساعدني أوقاتي من قبلُ على الاستفادة منها ، وقرضت الشعر الكثير ، وعكفت اتدارس الفارسية والانكليزية والالمانية على قدر الاستطاعة ، ولما انطلقت الى بغداد ، بقيت بعيدا عن الوظائف سبع سنوات لم احن فيها رأسي لاحد ...... ثم صدرت الارادة الملكية على غير علم مني باعادتي الى وظيفتي السابقة في ديوان وزارة المعارف ترفيعا درجتين (رقم الارادة ٢٣٩ وتاريخها ١٩٤٨/٤/٥) »

نُفيتُ الى أرض كأن أديمها وجوهُ لئام في « العراقين » أنذال
عجبتُ لها .. آناً يثور قتامها وآناً يجيء المدُّ فيها بأوحالِ
تُراوحُها ريحُ الجنوب وبيأةً فتخنق أنفاسي ، وتعرُك أوصالي
فأين النسيم العذب بغداد أخبري ونضرةُ عيش من نعيم وأظلالِ ؟
حُرمت لذاذاتي هناك وراحتي وبُدّلت من تلك الجنان بأطلالِ

مؤتمرات

ولعلّه اول عراقي (عالم من طراز الأثري) يدعى بكثرة الى مؤتمرات العلم والثقافة والسياسة ، وذلك من سنة ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م الى اليوم .. ويدعى اليها مشاركا ومشاهدا

ومقوما وناقدا ، وفي كل هذه المؤتمرات كان فيها عراقيا ينبض قلبه ، وعربيا ينبض عقله ، وانسانيا لايحيد عن صراط تراثه القومي .. وهو ايضا لو اسعفته الظروف الصحية لكتب في هذه المؤتمرات كتابا او مجلدات ، عنـوانها الرئيس (العـراق في نصف قرن بين شعوب الارض) ، لأن (الأثري) امتزج في هذه الشعوب ممثلة في قادتها الروحيين ، ولأنه صارع واشتبك مع بعض هؤلاء القادة ، فكان الجدل في حضارة العراق ، في أرضه وتاريخه ، في اعلامه ، في اي منهم اعطى ، واي منهم أخفق في رسالته .. وكانت يوميات ولحظات رأى فيها الأثري (الشاعر والبحاثة والكاتب والجغرافي) العراق قويا في حجته التاريخية ، حتى شاهده القـوم هناك ، في هـذه المؤتمـرات يأخـذ الراية باليمين ..

ومن هذه المؤتمرات التي شهدها وشارك في أعمالها :

١ ـ المؤتمر الاسـلامي العام في القـدس الذي دعا مفتي فلسطين الأكبر اليه ، وافتتح في المسجد الاقصى ليلة ٢٧ رجب ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١ ، وقـد انشد (الاثـري) في حفل الافتتـاح قصيدة حماسية نشرتهـا صحف فلسطين ، وشـارك في اهم اعمال المؤتمر ولجانـه ومنها (لجنـة الجامعـة الاسلاميـة)

وأعضاؤها زعماء العلم والفكر والسياسة : محمد رشيد رضا ومحمد اقبال وعبد العزيز الثعالبي التونسي ، ومحمد علي باشا علوبة المصري :

لبيك ، بيت الله ، إنّا معشرٌ يقظُ الغرار ، مجـرّدٌ لجلاد
خذنا بكفك ، ثم جرّبنا تجدْ أيّ الظُبا في أي يوم جهاد !
ان الذي اعلى سماءك ، أرهفت يـده شبانـا، لايد الحـداد
خسئتْ (صهاينةٌ) تريدك عنوةً بغياً، وشلّوا بالجهـاد بدادِ
طاشت عقول الطامعين فانه لاشيء دونك غير ضربِ الهادي

٢ ـ المؤتمر العربي .. انعقد في (القدس) في دار السيد عوني عبد الهادي المشهور في عالم المحاماة والسياسة . وقد وقع فيه (الأثري) على ميثاق سياسي يفرض مواصلة الجهاد في سبيل انقاذ فلسطين وتحقيق الوحدة العربيـة ومقاومـة الاستعمار والصهيونية ودعوات التجزئات الاقليمية ، ويعدّ هذا (الميثاق) الذي شـارك فيه (الأثـري) من الوثائق الجهـاديـة الأولى في القضية الفلسطينية .

٣ ـ مؤتمر بلودان .. عقد في صيف ١٩٣٧ في بلودان من ضواحي دمشق لمعالجـة القضية العـربية الكبـرى ، قضية فلسطين ، ورأسه السيد ناجي السويدي من رؤساء الوزراء



الأثري بعد خروجه من السجن سنة ١٩٤٥

العراقيين ، وشهده جم غفير من ساسة العرب وافذاذهم منهم الأمير شكيب أرسلان ، وقد مثل فيه (الأثري) دعاة الاصلاح الديني في العراق .

٤ ـ المؤتمر الثقافي العربي الأول .. عقدته جامعة الدول العربية في ايلول ١٩٤٧ في (بيت مري/ لبنان) وافتتحه رئيس الجمهورية اللبنانية ، وقد اختارت وزارة المعارف العراقية (الأثري) رئيسا للوفد العراقي اليه ، خطب في حفلتي افتتاحه واختتامه ، ورأس (لجنة اللغة العربية) فيه .

٥ ـ مؤتمر الادباء العرب الثالث في بلودان في خريف ١٩٥٦ ، دعته الجمهورية العربية السورية اليه ممثلا للعراق ، افتتحه السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية

٦ ـ مؤتمر المجامع اللغوية العربية .. عقدته جامعة الدول العربية في خريف ١٩٥٦ في دمشق ، وقد مثل (الأثري) المجمع العراقي فيه ، وانتخب احد نائبي رئيسه ، وعضوا في عدة لجان انبثقت عنه ، افتتحه رئيس الجمهورية العربية السورية السيد شكري القوتلي ، وخطب الأثري في حفلي افتتاحه واختتامه ، ودعي في أثناء ذلك لتأبين فقيد العروبة الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس المجمع العلمي العربي ، لما كان بين

(الأثري) وبين الفقيد من أواصر الصداقة ، فصدع بالامر وفاءً للمودة واكبارا للعلم .

٧ ـ الاحتفال بذكرى مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامع القرويين في فاس ، دعته اليه الحكومة المغربية في خريف ١٩٦٠ ممثلا للعراق ، وخطب فيه ، وقد افتتحه الملك محمد الخامس .

٨ ـ مؤتمر الادباء العرب الرابع والبحتري في دمشق في صيف ١٩٦١ ...

٩ ـ الاحتفال في الجزائر بمرور الف عام على تأسيس جامع البوني وتجديده في مدينة عنابة في خريف ١٩٦٨ .. كما حضر مؤتمرات العلم والاصلاح الاسلامي في دمشق والمدينة المنورة والرياض ..

اما المؤتمرات التي لم تساعده الأحوال على حضورها ، فلا تقل عن هذه المؤتمرات عددا ان لم تكن اكثر منها ، كالمؤتمرات العلمية والفكرية التي عقدت في : اسلامبول ، وطاشقند ، والهند .. ومازال (الأثري) يتذكر عمق هذه المؤتمرات ، في شخوصها ورموزها ، فيما توثقت العرا بينه وبين هذه الرموز ، رموز كبرى ، كانت عنوان بلدانها في العلم ، افاد منهم (الاثري) ، وأفادوا منه ، كان سفيراً (لبغداد) بلا منازع !

كل هذا من أجل أن يضاء الوطن في وجدانه ، كان يعبر

القارات من آسية الى قاعات الخطابة ، فيرتجل قدره بقصيدة مشيدة بالأمجاد ، ويناجي حضّار القاعات بالحضارة ، هو مغرم بأن يرتجل التراث بلسان لايستعير حروفه من كتاب أو مدرسة ، وانما لسانه الذي نطق وفكر وأجاد ، وغنّى للحرية ، وكان طوال ستين عاما يغني كلما ينكأ جرحه ، وكلما كان الطغاة ينقمون على قلبه الجريح ، وعلى وطنه الجريح ، وفيما

■ رجل دين ام عالم دين ؟

ولما ذهب الجدل بنا الى الفقه الاسلامي ، قلت للأثري : هل فكرت منذ الصغر أن تكون رجل دين ؟ قال :

« كنت منذ طفولتي مدفوعاً بفطرتي الى المعرفة (مطلق المعرفة) ، ولم يدُرْ في خلدي شيء مما تسألني عنه ، ولم يكن الاحتراف والتكسب بالعلم من اي نوع كان مطلباً لي ، وكذلك كان فكر والدي في هذا الشأن . لقد كان يحبّ لي حِلْيةَ العلم والأدب ليس غير ، وقد حققتُ له هذا الذي أحبَّ أن يراني عليه قبل أن يغمض عينيه الاغماضة الاخيرة ، وتوفي وهو قرير العين بذلك ، رحمه الله . أمّا ماتسميه (رجل دين) ، فليس في الاسلام (رجل دين) يبسُطُ سلطانه على الناس كالذي عليه الكهان الوثنيون واضرابهم ، وإنما في الاسلام (عالم دين) يعلّم اصول

مضى من زمن بعيد كانت جموع الرافدين تغني نشيد (الأثري) :

وطني بلادُ الضاد حيث هفا به نطقٌ وبغدادُ العُلى ميلادي
إني أوقّع صكَّ تفديتي لها بدمي ، وآنف خطّه بمدادِ

ودائما كانت الحرية لغزه ، في علمٍ ، أو في وطن ..!

العقيدة ومكارم الأخلاق وفقه الحياة ، لايتعدى ذلك الى خُويصّات الأفراد ..» .

وقلت للاثري : ولماذا يبتعد علماء الدين أو اكثرهم عن قرض الشعر عندما يصلون الى درجة الاجتهاد أو المنزلة العلمية الكبيرة ..؟ قال :

« الشاعر (الشاعر) يظل سلطانُ الشعر غالبا عليه ، وليس الشعر بمزرٍ بالعلماء اذا هم سيَّروه في المطالب الشريفة ، وحسبك أن الرسول عليه الصلاة والسلام نصب لشعراء المسلمين المناضلين منبرا في مسجده واصغى اليهم بكل جوارحه ، وأجازهم عليه . وماتشير اليه مردُّه فيما يبدو لي الى تغير العقليات والمصالح ، وجعل العالم نفسه (رجل دين) لا (عالم دين) ، ولكل زمان ناسهُ وعقلياته ومصالِحُهُ ، ولله في خلقه شؤون ..» .

الفصل الثاني

العقل المبدع والمتفنّن

عقل جامع

ولم يقل (الأثري) الا « أنا طالب علم » ، ولم يزعم لنفسه الابداع ، وما رأيتُهُ الا وهو يردد هذه المقولة . أما نحن ، أو اولئك الذين قرؤوه أو تَلْمذُوا له في (مدرسته) ، فقد وجدناه كاملا في (مطلق المعرفة) .. كالنحلة في مطلق علوم العربية ، يمزج هذه العلوم في عقله ويطورها ، حتى تصبح هذه العلوم (اجتهادا) في علم ، و(اجتهاداً) في معرفة ، ومن هذا الاجتهاد تنقّل (الأثري) من علم اللغة الى علم الجغرافيا ، الى علم التاريخ ، الى علم التحقيق ، الى علم النحو ، الى الشعر ، علوم واجتهادات «بلورت» فيه (عقلا موسوعيا) ، وقيل في القديم : من مارس القوة في هذه العلوم قوي واستحصف .

وكان (الأثري) في سالف أيامه يقول لي : « لاريب في أن الارادة الالهية قد أفاضت على العرب نعمة العقل ونعمة الذكاء .. وهما خصلتان أو ميزتان جليلتان ظهرتا في أدبهم قبل الاسلام ، ثم في الاسلام .. في القرآن وأدب النبوة في صورة من الروعة والجلال والجمال ومن العمق والشمولية ، لااروع منها في الفكر الانساني ، من أزل الدهر الى أبده . يعلم هذا من يعلمه ، ويجهله من يجهله » .

وقالت العرب : « ما المرء الا مايحسنه ، فأحسن الأثري في كل علم تعلمه وعلمه ، ولايفضل شيئاً على آخر ، وانما يرى أن علوم العربية ، كلها ، تتوغل في صميم الوحدة الكونية ، حتى تبدع انساناً ذا قدرة وفاعلية في أداء التزاماته الانسانية

العالم اللغوي

اللغة العربية .. لغة ذات ميادين فساح ، وأبعاد شواسع ، يرتبط بعضُها ببعض ارتباطا عضويا لايقبل الانفكاك ، ولابدَّ لمن يحاول أن يكون من علمائها الحقيقيِّين أن يجري افراسه في مضاميرها كلها زمنا مديدا ، متفقهاً ومتعمقاً ومتقصيا ، لايقف منها عند ميدان واحد كميدان (المفردات اللغوية ،) وحدها مثلا ، فان الاقتصار على هذا الشأن لايجعل صاحبه عالما لغويا .. فالى جانب التضلع بالمواد اللغوية ، لابد من التضلع من اصول اللغة وفقهها وفلسفتها ، ومن التعمق في النحو والتصريف والاشتقاق ، وفي علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، مع التمرس بأساليب الفصحاء وتعرف أساليب الكلام في الاستعمال ، ووضع الكلم في مواضعه كما تقتضيها الدلالات المقصودة في الكلام ، وهي مطلب

اللغـات . والعلم المقصـور عـلى «المفـردات» التي جمعت في المعاجم ، لايجعل من صاحبه عالما لغويا ، لأن الألفاظ مجرد مواد ، وحياة الألفاظ انما تتحقق بالاستعمال ، والاستعمـال يتنوع بتنوع مقاصد المتكلمين ، ولكل نوع طريقة في الأداء تميز دلالة عن دلالة أخـرى ، وتعين المعـاني بـوضـوح .. وكـان (الاثري) من هذا الطراز الذي أتاه الابداع في اللغة فتفنن فيه وتمرس في قوانينه ، وجعلته مجامع اللغة العربية ، في القاهرة ودمشق وبغداد والأردن والرباط ، (مرجعا) يرجعون اليه في تصويب قانون ، او في تقويم قـانون من هـذه القوانـين التي تتشكل فيها لغة الضاد .. وقد سلك في دراساته اللغوية مسالك عدة :

المسلك الاول : عني فيه بالوسيلة الأولى لتدوين اللغة ، أي : في رسم الكتـابة الذي درج المختصـون عـلى تسميتـه (الاملاء) .. وخلاصة تصور (الأثري) في هذا المسلك ، « أن السلف قد عُنُوا به عناية بالغة ، غير أنهم عقّدوه . اذ ربطوا رسم بعض الحروف بالأصول الصرفية ، وعقّدوا رسم كتابة الهمزة ، وأوجبوا رسم الألف المقصورة تبعا لأصلها ، فما كان أصله الواو رسموا الفه المقصورة ألفا ، وما كان أصله الياء



الشيخ محمد الفاضل بن عاشور التونسي ، الاثري ، محمود شيت خطاب ، عزيز اباظة ، عبدالفتاح العيدي

رسموا ألفه ياء ، في مثل دعا ، ورمى ، وأوجبوا رسم مازاد على الثلاثي باليـاء ، مثل : يحيى (الا اذا كـان فعلا مثـل حيي يحيا) ، ومصطفى .. وزادوا بعـد واو الجماعـة في الأفعال الفا ، وأسقطوها حيث يدعـو النطق الى رسمهـا مثل : هـذا وهؤلاء ، ولكن .. ورسمو الهمزة بصور مختلفـة يصعب على معظم الناس تعرفها واجراؤها كما قرروا ، اذْ لابد لمن يريـد رسمها رسما صحيحا على وفق ذلك أن يتأمل حركاتها وسكونها وما يحيط بها من أحوال الحركة والسكون من عن يمينها ومن عن شمالها ، ليجلسها على كراسيّ الواو أوالياء أوالألف ، أو لينـزع هذه الكـراسي جميعا من تحتهـا ، ويلقيها في العـراء لتفترش الارض وحيدة الى جانب بقية الحروف المتصلة ..» . وطالما نادى (الأثري) ، في تقاريره ، بأن هذا المذهب قد فرض نفسه على المتعلمين ، وصار سنة متبعة لهم . وكان هناك نفر من الأذكياء قد رفضوه قديما ، ورأوا تسهيل ماصعبوه وعقدوه ، فلم يسمع لهم رأي ، وكان خليقا بأن يسمع ويقبل ..

اما نظرية (الأثري) ، او القاعدة الجديدة التي أعلنها ، فهي التي ثبتها في دراسة كتبها استجابة لطلب مجمع اللغـة العربية بالقاهرة ، وهي تلخص في أصلين : الأصل الأول أن

يحمل الخط على النطق ، أي يكتب بحسب نطقه من غير مراعاة لأصول الكلمة ، لأن ذلك أشبه بطبيعة الأشياء وأنفى للغلط والتعقيد .. والأصل الثاني يخص رسم الهمزة ، وقد اقترح (الأثري) لها ما اقترحه (الفراء) قديما ان ترسم بصورة واحدة حيث وقعت ، وهي فكرة قابلة لشيء من التنويع القليل في رسمها على طريق التسهيل والتيسير جريا مع طبائع الاشياء . على أن (الأثري) يقرر أن المذهب المعمول به من مراعاة أصل الكلمة هو ألصق بطبيعة اللغة العربية من جانب النظر العلمي ، لكنه عسير على المتعلمين في جانبه العملي ، وقد ذكر (الأثري) ان هذه الحالة لم تنفرد بها اللغة العربية ، وانما هي قائمة في مختلف اللغات ..

المسلك الثاني : تناول فيه (الأثري) جملة أمور هي :

١ ـ التوسع في الاشتقاق على مثل الأوزان الكثيرة التي استعملها العرب وأهملتها الدراسات ، كأوزان أسماء الآلة ، وقد بسط هذا في بحثه (الآلة والأداة في اللغة العربية ، في ضوء عبقرية العربية ومطالب التمدن الحديث) الذي قدمه الى المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٦٢ ..

٢ ـ دعا الى اعتبار المزيد كالأصلي للاشتقاق عليه ، وهو

شأن مهم توضح به الفروق في الدلالات الاشتقاقية .. كذلك قدم هذا البحث الى بعض المؤتمرات السنوية للمجمع المذكور .. وقوبل بالجدل والقبول ..

٣ ـ سعيه في توثيق الألفاظ الحضارية ودلالاتها التاريخية ، وهي كثيرة ، ولكن المعاجم لم تأبه لها ، أو هي قد ابهت لشيء منها ، غير أنها ساقت الكلام فيها غامضا ، وربما ضامتها بالتحريف أو بالتصحيف ، أو بالتغيير ، فتعددت صورها ، فتعذر تمييز الصحيح من السقيم ، وأُطلق القول في كثير منها بأنه (معرب) ولم يُؤَصَّلْ ، اي أن تلك المعاجم في رأي (الأثري) لم تنص على أصلها ماهو ، ويعدُّ ذلك امرا ذا بال في دراسة الصلات اللغوية ، وقد قدم هذا البحث الى أحد مؤتمرات مجمع اللغة بالقاهرة ، ليتوجه جانب من نشاطه الى العناية بهذه الناحية اللغوية التاريخية . ذلك أن للألفاظ الحضارية دلالات تاريخية ترشد الى أشياء ذات شأن في علائقنا الماضية بالأمم وعلائق الأمم بنا ، سكت عن بعضها التاريخ ، وأفصحت عنها هذه الألفاظ !

٤ ـ ان ألفاظا كثيرة ضِيمَتْ باستعمالها الفاسد ، والعدول بها وبدلالاتها عن جهاتها ، فنبه (الأثري) على كيفية استدراكها

في المعـاجم الحـديثـة ، وضـرورة رجْعهـا الى أصـالتهـا في الفصاحة ، وأن لاتقحم في هذه المعاجم بصورها الفاسدة ..

٥ ـ عني (الأثري) بالنقد اللغوي ، باصلاح أغلاط الكتاب ، وقد نبه على أشياء منهـا كثيرة في بحـوث مستقلة ، وفي نقد الكتب ، ونشـرت هذه البحـوث والتصويبـات في مجلة (لغـة العـرب) ، ومجلة المجمـع العلمي العـراقي ، وفي جـريـدة (العـراق) ـ القديمـة طبعا ـ وفي التعليقـات على الكتب التي اضطلع بتحقيقها .. وثمة من يطالب العلامة (الأثري) بجمع هذه الأشتات النقدية اللغوية في كتاب مستقل ..

٦ ـ شارك الأثري في دراسة المصطلحات العلمية والفنيـة التي حفل بها المجمع العلمي العراقي الأول من سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٦٣ ، ثم في المجمع العلمي العراقي الثالث من سنـة ١٩٧٩ الى اليوم (١٩٨٦) ، ودراسة المصطلحات التي شغل بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة .. وقد تناول ضروبا من المعارف الانسانية منذ سنة ١٩٦٢ .. وقد عرف (الأثري) بأن مجهوده في هـذا الميدان في أعمـال المجمـع العلمي العـراقي مجهـود (الجنـدي المجهول) غُفْـل من النسبة ، لأن المجمـع يضع الأشياء بطريقـة (الأكثريـة) ولايثبت وجوه الآراء المتخـالفة

منسوبة الى اصحابها ليعرف حقها من باطلها وصحيحها من سقيمها .. أما مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فمسلكه غير هذا المسلك في اقرار المصطلحات ، انه يثبت في محاضر مؤتمراته السنوية كل مصطلح مقرونا بآراء المتناقشين في شأنه ، مع اسناد كل رأي الى صاحبه ، فيكون مجهوده في اعمال هذا المجمع مجهود (الجندي المعلوم) ، وكل هذا مثبت في محاضر مجمع القاهرة ..

٧ ـ منذ أعوام شغل (الأثري) بألفاظ الحضارة الحديثة ووضع مايقابلها من فصيح العربية المأنوسة وهي مطلب وعر ، ثم برد العامي الى الفصيح .. ومجهوده في هذين المجالين مجهود (الجندي المجهول) أيضا لأن مرده الى المشاركة . ومع هذا ، فلا أرب له غير أن يحقق للغتنا النشر والاستعمال ، وهو مسرور بما ينجز من الاعمال ، فقد عشق هذه اللغة ، وتفانى فيها ، حتى (أبطل دعاوى الشعوبيين الذين يتهمون اللغة بالعسر وبالقصور) كما كان يقول لي دائما

الأثري الجغرافي

وفي طبعه ميل الى العلوم الانسانية ، وتتبعها ، والتضلع فيها ، وليس للطبع تعليل ، وانما هو شيء مركب في الجبلة ، وقد

أحب الجغرافيا منذ الصبا إبان دراسته في الرشدية العسكرية (العثمانية) ، ثم في المدرسة السلطانية (العثمانية) ، فقد ثقف في هاتين المدرستين نبذا من هذا العلم ، كما ثقف فيهما رسم خارطات القارات على مثال الأطلس رسما دقيقا وملونا . ولما دفع الى درس الأدب العربي ، كان أول شيء طالعه من شعر العرب معلقة امرىء القيس ، وأول شيء وجده في هذه المعلقة ذكر الشاعر في مطلعها أسماء مواضع في جزيرة العرب (بسقْط اللوىٰ) و (الدخول) و (حومل) و (توضح) و (المقراة) .. ثم وقع على مثل هـذا في المعلقات كلها وفي شعر (الجاهليين) كله ، فدفعته غريزة حب تعرف الأشياء الى البحث عن هذه المواضع ، وهدي الى معجم البلدان ، ودهش اذْ وجد مؤلفه ياقوتا الحموي يقرن تعريفه كل موضع منها بِشواهد من أشعار العرب ، تبين (الأثري) من جملتها مدى تعلق الانسان العربي بوطنه ، ووثوق صلته بترابه وحبه له ، كما تبين منها عالما جغرافيا يحدد الامكنة تحديدا دقيقا لايعوزه الا ذكر المسافات والاميال لو وسعت الاشعار ذلك .. ثم اتى التاريخ العربي الاسلامي يقرأ فيه أخبار الفتوح ما بين شرق الوطن العربي امتداداً الى تخوم الصين ، وما بين غربه امتداداً الى فرنسة ، وجد كل خبر من



في حفلة افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ ١٩٦٥

أخباره يقترن بالمسالك والممالك والبلدان ، فلم يكن له بدّ من تعرف ذلك الى جانب تعرف الأخبار التاريخية ، وهكذا اقترنت عنايته بالتاريخ بعنايته بالجغرافيا من غير تكلف لها ..

وقد جاء اهتمام (الأثري) بالجغرافيا ، علما ونظرية وبحثا ، متأخرا بالقياس الى علوم أُخر ، نبغ فيها في العشرينات . فقد بدأ فيه هذا البحث الجغرافي مع انشاء المجمع العلمي العراقي (١٩٤٨) ، وكان أحد مؤسسيه العشرة - فتقدم اليه بمشروعه الأول وهو نشر الخارطة العالمية التي وضعها العالم الجغرافي الشهير (الشريف الادريسي) للملك النورمندي (رجار الثاني) ، وكان نازلا عليه بجزيرة صقلية بعد خروج صقلية من حكم العرب المسلمين ، وكان وضعه لهذه الخارطة العالمية في منتصف المئة السادسة الهجرية ، وقد رسم له صورة العالم على كرة كبيرة من الفضة ، ثم رسمها سبعين جزءاً بحسب نظام الأقاليم السبعة ، لكل أقليم جزء دوّن فيه الأسماء الجغرافية ، ثم عرفها في كتابه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) .. والخارطة المرسومة على الورق بقيت محفوظة في مخطوطات عديدة ، وقد جمعها المستشرق ملر ، ورسم فيها الأسماء الجغرافية

بالحروف اللاتينية في كثير من التحريف الذي افسدها .. وقد آلم (الأثري) هذا الافساد في تراثنا ، فوجد من الخير ان تنشر الخارطة في صيغتها العربية مصححة ، وعرض الفكرة على مجلس المجمع فرحب بها واقرها ، فعكف هووصديقه القديم العلامة الدكتور جواد علي (صاحب موسوعة تاريخ العرب قبل الاسلام) على نقلها الى العربية منقاة بقدر الامكان ، وبقيت في نفس (الأثري) منها أشياء .. وكتبها بخطه خلال شهرين وتولت مطبعة المساحة طبعها ، فأحسنت الطبع والاخراج على نحو لم يعهد مثله في العراق ، واشتهرت الخارطة في صورتها العربية في الاقطار ، ثم اعادت جمعية المهندسين العراقيين طبعها ثم عكف عليها ثانية وحققها تحقيقا جديدا أزال منها الغموض .

وثاني آثاره في الجغرافيا : (الجغرافيا عند المسلمين والشريف الادريسي) ، وهو محاضرة حاضر بها في المجمع العلمي العراقي ، ونشرت في الجزء الثاني من مجلته عام ١٩٥١ .. ومحاضرته تلك كانت طوافا في أنهر العرب وصحرائهم وتراثهم في هذه الأنهر والصحراء ، وهي من أمتع المحاضرات (الكتب) في ادب الرحلة والرحالين العرب

والمسلمين ، وتكشف عن عمق علم (الأثري) وغزارته في جغرافيا العرب .

وثالثها : تحقيق كتاب الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ولايزال في المسودة ، ولو طبعته المؤسسات الثقافية لفتح فيه (الأثري) فتحا في علم تحقيق كتب الجغرافيا .

ورابعها : (معجم الأقاليم) .. وهو بضعة اجزاء كبار اشتملت على جميع اعلام (صورة الأرض) أو (خارطة الادريسي) وهي نحو من ثلاثة آلاف علم جغرافي .. وقد حقق فيه هذه الأعلام ، وأعاد اليها الدقة والصحة ، وضبط كل مايجب ضبطه ، وتبسط في التعريف والشرح ، وتدوين المراجع في آخر كل مادة منه ، وربما يُرْبي كل جزء من هذه الأجزاء على ألف صفحة ، وهو معد للطبع ..

وخامسها : (مرآة الأقاليم) اختصر فيه (معجم الأقاليم) ليخف حمله على من يريد معرفة الاعلام الجغرافية في خارطة الادريسي المصححة متعجلا .. وفي مكتبة (الأثري) ايضا «مشاريع» متعددة الأغراض في بحوث الجغرافيا .

الأثري الخطيب

بدأ الخطابة منذ سنة ١٩٢٤ في محافل بغداد ، ثم في محافل حواضر الاقطار العربية ومؤتمراتها ، في القدس ودمشق ، والقاهرة ، وفاس والرباط ، والجزائر ، وعنابة ، والرياض ، ابتداءً من سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١) . وفي المؤتمر الاسلامي العام الذي عقد في القدس في المسجد الاقصى اصغى اليه علماء من جميع الاقطار الاسلامية ، وانتبهوا الى خطيب يولد في (بغداد) اسمه الشيخ (الأثري) ، واستمع إليه العلامة المصلح الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، فقال : « هذا منبر كبير » ، وكان يخطب الأمة في أولى القبلتين وثالث الحرمين دفاعا عن عروبة فلسطين ، وكأنه يتفجر عن بركان من شرر البلاغة ، بصوت مسموع ذي نبرة تتهادى : رقيقة ، قوية ، معبرة ، دافئة ، في سُلّم من أصول اللغة العربية في فن الخطابة ، ولا ريب فهو من أولئك الخطباء الذين يعانون الخطابة بحسب المواقف ، يعانيها مرتجلا على البداهة تارة ، ومُعدّاً لها تارة .. ويؤثر في المواقف الدقيقة « المسؤولة » الاعداد على الارتجال ، بشرط أن تتخذ الخطبة المعدة أسلوب الخطابة في غير تعمل ولا تكلف ، لا أسلوب التلاوة ؛ لأن أولى مطالب الخطابة التأثير .

وقد ادرك في العشرينات أن الخطابة كالشعر وغيره من الفنون الجميلة ، فن يقوم على عناصر الموهبة والسليقة ، وقوة العارضة ، وقوة الجنان ، أو مايسمونه حديثا « الشجاعة الأدبية » ، مع امتلاك ناصية البيان ، والقدرة على التصرف ، وتقدير الموقف ، وامتلاء النفس من معاني الأغراض التي تحفز الخطيب أن يخطب ليؤثر في نفوس السامعين الأثر المطلوب ، والّا نزل من « المنصة » بارداً كما صعد اليها بارداً ، وكأنه لم يقُلْ قولا ، بل ليته لم يفعل .. و(الأثري) قال فجوَّد أحسن القول ، وفعل في نفوس سامعيه أيما فعل في التأثير النافذ ، وكأنّه فطر على هذه البراعة في القول ، وكأنه رزق هذه الموهبة في الصوت المنظم ، منذ اختار حياته في العلم ، والى جانب ذلك ، فانه متحدث ، لبق المعاني ، لبق الألفاظ ، لبق اللسان ، وفي هذه اللباقة سلطان يبسُطُ جناحيه على (جلسائه) أو (مريديه) بمودة ،بألفة ، أساسها : الاعتراف بمنطق العلم وقوته وحجته في المتحدث (الأثري) ، هذا المتحدث برع في لسانه ، فابتكر له قوة النغم ، وشدّد على أن يكون هذا اللسان او غيره من ألسنة المتحدثين الخطباء عربيا في فصاحة !

الأثري المؤرخ

وهو مؤرخ ، يجيد فن كتابة الحديث والرواية ، ويتفنن في النقل ، ويؤمن بحرية البحث المنهجي ضمن ضوابط العلم والتحقيق بعيدا عن التأويلات والانحراف مهما كانت البواعث والدواعي ، وهو يتحرج من الكذب اذا وضع قصة في تاريخ مّا ، كسلفه من المؤرخين العرب المحدّثين الأجلاء الذين يتثبتون في حكاية الروايات ، ويحرصون على الصدق والخروج من تبعة ماعسى أن يكون في الاحاديث والأخبار من اكاذيب ومفتريات ، تدينا ، وخوفا من الله أن يحشرهم في زمر الكذابين ، وهم ملعونون بنص القرآن .

وقرأ التاريخ ، وأول ماقرأ تاريخ العرب قبل الاسلام ، ليكون منه المدخل الى الاسلام ، وتعرّف الاصلاح العام الذي أدخله على الحياة العربية ونفسية الأمة العربية ، ودوافعها الى الانبعاث والامتداد الى ما وراء حدود جزيرة العرب من العالم القديم ، فأخذ من هذا حظا موفورا ، قرأه في أشهر كتاب حديث وضع في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهو كتاب (بلوغ الأرب ..) لشيخه الأكبر العلامة محمود شكري الالوسي ، وهو

ثلاثة أجزاء كبار ، قـرأها عليـه (قراءة درس ومقـارنة) .. وسرعان ما أقبل يوفّر مصادره ، ويعود اليه ضبطا وتحقيقا ، ويدفعه الى صاحب (المكتبة العربية) ، ليعيد طبعه بتحقيقه في مـطابع مصر ، وشـاركه فيـه تاجـر كتب في بيروت وآخـر في القاهرة ، وانتشر الكتاب بعيد وفاة مؤلفه النابغة الألوسي الذي نال به (جائزة اسكار الثاني ملك السويد والنرويج) ، ولقي تحقيق (الأثري) استحسان النقاد له .. وفي طليعتهم (الأب أنستاس ماري الكرملي) في مجلته (لغة العرب) الذي عقد له بحثا مفصلا نشره في ثلاثة أجزاء من المجلة ....

وقرن بدراسة تاريخ العرب قبل الاسلام السيرة النبوية لابن هشام ، وشرحها (الروض الأنف) للامام السهيـلي ، ودراسة الصحابة العظماء الذين حملوا الهداية الى الدنيا شرقا وغربا ليـوحدوا بـالاسلام البشـرية جمعـاء برابـطة الأخوة والانسانية والعقيدة المشتركة .. وأفاد الدروس الجليلة في ذلك من كتاب (أشهر مشاهير الاسلام) للمؤرخ رفيق العـظم ـ أحد كبار رجالات العلم والاصلاح في هذا العصر ، وعضد ما أفاد من هذا الكتاب بالقراءات في كتاب الاصـابة في تـراجم الصحابة للامام ابن حجر العسقلاني ، وتاريخ الخضري ..

وفي هذه الكتب الاسلامية التاريخية ، وجد النماذج الحية لعظماء الأمة في العلم والخلق والتجرد. والاخلاص وسمو الذات من السلف الصالح .. في مشايخه في العلم ، وأسلافهم الأقربين الذين استنّوا سيرهم ، فأعجب بالصورة والمضمون ، حتى أوحى اليه ذلك أن يؤلف أول مؤلفاته (وهو مازال في عهد التلمذة) على أثر وفاة استاذه الآلوسي (١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٤م) وكان الكتاب بعنوان (اعلام العراق) طبعه والده في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٩٢٤ ، وقرظته المجلات وفي طليعتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد كتب التقريظ العلامة الشيخ عبد القادر المغربي ، وكساه من حلل التقدير والاكبار وهو في عنفوان العمر بما لم يظفر بمثله أحد ..

ولم يقف في كتابة التراجم عند هذا الحد . وانما قرن في الوقت نفسه هذا المجهود بأعظم منه ، فشرع في تأليف كتابه (أشهر مشاهير العراق ، في العلم والادب والسياسة والرئاسة والظرف والفنون الجميلة منذ المئة الثالثة عشرة الهجرية) . وقد قدر له انجاز قسم منه في وقت قصير ، نشر أمثلة منه في مجلة لغة العرب ، ومجلة المعرض ، ومجلة العالم الاسلامي ..



في فندق هلتن بالقاهرة .. سهير قلماوي ، عبدالخالق حسونة ، وسفير لبنان

وقد شغل إبان عهد التلمذة ـ قبل هـذا كله ـ عند دراستـه (بلوغ الارب) وتحقيقـه ، بمسألة الحـركة الشعـوبيـة في الاسلام (وله في هذه الحركة فيما بعد العشرينات نقود ومعارك حارب فيها هذه الحركة ودعاتها والدائرين في فلكهـا) . وقد عرض لها الامام الالوسي في كتابه (بلوغ الارب) ، فوعـاها (الأثري) كما ينبغي ، ثم اثاره الى الكتابة في نقضها (كتاب المثالب) من وضع ابن الكلبي أحد الشعوبيين القدماء ، وقد اهديت منه نسخة قديمة الخط الى أمين الريحاني عند قدومه الى العراق في نحو سنة ١٩٢٢ ووصلت هذه النسخة الى أستاذه الالوسي عن طريق الشيخ كاظم الدجيلي الذي رافق الريحاني طوال أيام اقامتـه ، فدفـع الى (الأثري) نصفـه ، واستبقى لنفسه النصف الثاني ، لينسـخ الكتاب كله في وقت قصـير ، وامره أستاذه أن يعنى بنقض الكتاب ويرد عليه مفترياته على العرب ، ففعل (الأثري) ذلك ، ثم صرفته عن اتمامه تصاريف الحياة كما صرفته عن انجاز كتاب أشهر مشاهـير العراق .. وربما يعرف اصدقاؤه أن الاثري فيه خصلة ترك التآليف في أربـاعها وأنصـافها ، ولا أعـرف أي سر في ذلك الى الآن الآ ماذكرته من تصاريف الحياة .

أجيال

ومنذ أواخر العشرينات صار طلاب العراق يقرؤون للأثري ، تاريخا في العرب ، وتاريخا في أمجاد العرب ، بأسلوب سهل المأخذ ، وبوسيلة الشعر واختياره ، وبوسيلة النثر وعرض خرائده القديمة . فحينما دفعه الاشتغال بالتدريس الى نمط آخر من جوانب التاريخ ، يعنى به ، ويؤلف فيه .. الف في سنة ١٣٤٦هـ كتاب (المجمل في تاريخ الأدب العربي) على النهج الغربي الحديث الذي شاع في الدراسات ، وطبع الجزء الأول منه (في أكثر من ثلاث مئة صفحة) في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م ،) واعتمد في تدريس هذا العلم عليه في المدارس الثانوية وفي دار المعلمين الابتدائية . ولعل الرجوع الى فاتحة هذا الكتاب ما يمكننا من استقراء منهج (الأثري) وتفكيره في كتابة التاريخ قبل ما يقارب ستين عاما ، يقول : « وبعد ، فهذه ـ أيد الله بك دولة الأدب ـ مباحث في تاريخ الأدب ، تلم بنبذ جامعة من أصوله ، وعيون مُتنخَّلة من فصوله ، أنشأتها لطلابه من النشء الظميّ الى اشتفاف أفاويق الادب ، وراعيت في تقسيمها وتبويبها أوسع منهاج من المناهج التي توطأت الأقطار العربية على اصطناعها في المدارس الثانوية

ودور المعلمين والمعلمات ، لتكفيهم حاجتهم ، وتكون عونا لهم فيما هم بسبيله ، وقد توليت بسط موادّها بنقد الرواية ، وتثبيت الروية . ومن حق التاريخ على من يكتبه أن يجمع الى وفرة المادة صدق الدراية ، ونفاذ الفطنة ، وسياسة التدبير ، ليستطيع أن ينتزع من الأخبار العامة ، المتخاذلة بتضاربها ، المرضيّ المنتجب ، وينشىء هيكل الحقيقة انشاءً جديدا ، وأرجو أني كنت موفقا فيما قصدت له وعانيت ، ومؤيدا فيما نقضت من أقوال يخذل أخراها أولاها ، ومسددا فيما أبرمت من آراء أنتجها الفكر المستقل ، ومحصها البحث العميق ، ورغبتي الى من أوتي علما لم أوتهُ أن لايضنّ علينا بما عسى أن يبدو له ، وفوق كل ذي علم عليم » ـ ١٥ شعبان سنة ١٣٤٦هـ .

وفي سنة ١٩٣١ قررت وزارة المعارف تدريس مادة تاريخ الأدب العربي للصف الثالث من المدارس المتوسطة ، فكتبت الى (الأثري) أن يؤلف كتابا في هذه المادة بحسب المنهج الذي رسمته ، فاستجاب .. وألف (المدخل في تاريخ الأدب العربي) . وأفاد الطلاب من هذا الكتاب ، وأحبوا الأدب العربي ، وطبع الكتاب سبع طبعات ما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٤٢ وهي السنة التي اعتقل فيها (الأثري) ونفي في جملة

الأحرار الثائرين الى معتقل الفاو محبوسا بين الأسلاك الشائكة وسباخ الملح على أثر اخفاق حركة مايس الوطنية .. وقد ألغى المستشار البريطاني المهيمن على مقدرات المعارف تدريس هذا الكتاب عقوبة ثالثة له .

أولاها : النفي ، وثانيها : فصله من الوظيفة (وكان اذ ذاك مفتشا اختصاصيا بديوان الوزارة ، لخمس سنوات ، استمرت سبعا ..) ومايزال الطلاب الأحياء الذين ثقفوا من الأدب العربي في (المدخل) - وهو اسمه - يذكرون بالخير ما أفادوه منه من علم وتذوقوه فيه من نماذجه البارعة التي تفوق (الأثري) في اختيارها ، ولاءم أذواقهم ، وحبب اليهم هذا الأدب العربي الحي ..

وذات يوم قيل للعلامة الأثري (في الثلاثينات وكان يعد محاضرة في تراث الخالدين) : لقد كثر اهتمامك بالماضي ، وربما نسيت الحاضر ، ثم سأله آخر (في سنة ١٩٥٠ وكان يلقي محاضرة في الشريف الادريسي) : هل عزة الماضي أقوى من عزة الحاضر ؟ فأجابهم مستهلا محاضرته :

« ارجو ان لا أحرم التوفيق في شيء واحد ، ذلك هو إثارة الشعور بالعزة القومية في أنفسكم ، بما أوجب البحث العلمي

ي أعرض له : من صنيع الأجداد العظماء في بناء الحضارة الانسانية ، والمجد الباذخ الذي شادوه لأنفسهم وللعالم في ميادين الحياة ، بما كانوا يتحلّون به : من علو الهمم ، وطموح العزائم ، وتعشق المغامرات ، والدؤوب على تذليل الصعاب والعقاب التي تعترضهم في سبيلهم الى امتلاك أعنة السيادة المطلقة وحيازة الشرف الرفيع .. والرجاء في عرض هذه الذكريات العذبة أن تنفع في باب اعتبار الحفدة والأبناء بمحاسن صنيع الأجداد ، وأن تؤدي اثارتها واسماعها للجيل الناشئ الى الانبعاث في سبيل تلك العظات :

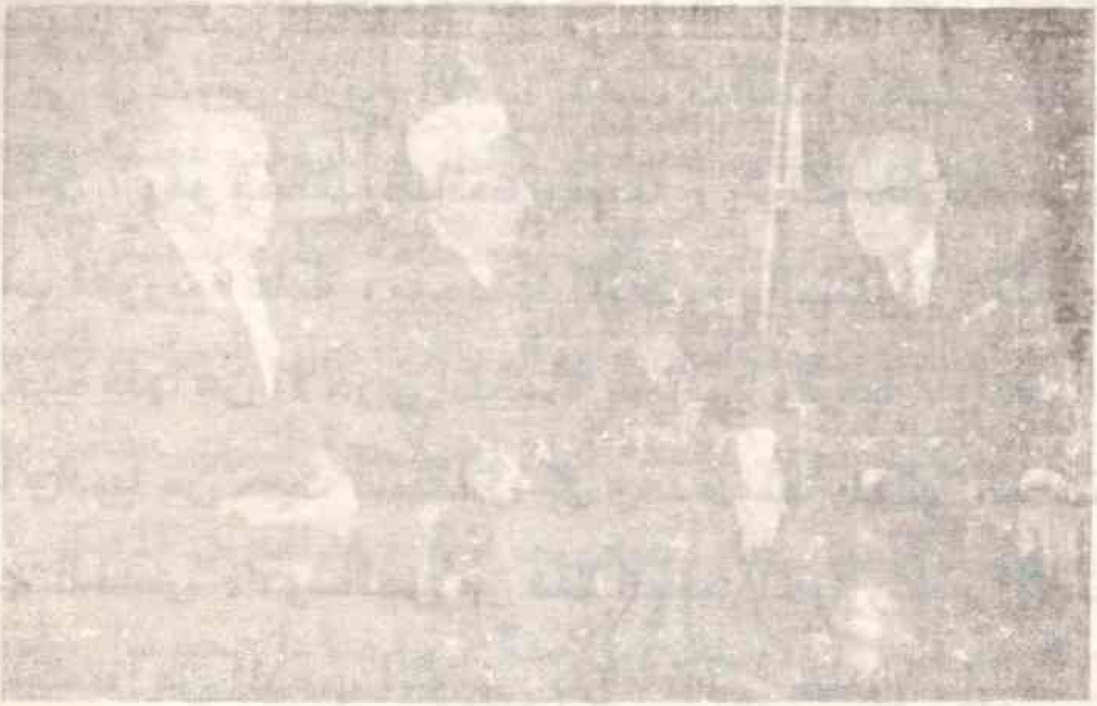
ولست أذْكر الماضين مفتخراً

لكنْ أقيمُ بهم ذكرى لِمدَّكرِ » .

سير النابهين

وحفلت حياته بسير أولئك الاجداد ، منقبا عنهم في متون الأرض ، وباحثا عن أصول كتاباتهم في خزانات التراث في مشرق الارض ومغربها ، وجمع عنهم وحقق ماجمع ، فكان من ذلك جمهرة من كتبه (المخطوطة) التي لم تصدر بعد ، او التي طبعت بعض أقسامها ، ومنها : محمود شكري الألوسي : سيرته وآراؤه اللغوية ، وهو ثماني محاضرات حاضر بها طلاب

معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية في سنة ١٩٥٨م ، وقد طبع .. وعبد المحسن الكاظمي : سيرته وشعره ، وهو ثماني محاضرات حاضر بها طلاب المعهد المذكور ، وقد اجل طبعه لاستكمال الجوانب الأخر من حياته وشعره .. وكاتب الدولتين ، النورية والصلاحية ، عماد الدين الكاتب القرشي الأصبهاني : سيرته وأدبه ، وقد نشر معظم البحث في مقدمة تحقيقه لقسم شعراء العراق من كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) .. ومحمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث .. حاضر به طلاب كلية الشريعة الاسلامية في الرياض سنة ١٤٠٠هـ ونشرته مجلتها ، ثم جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، ثم المجلة العربية .. والشاعر محمد بن حيدر البغدادي - مؤلف قانون البلاغة .. وعني (الأثري) بتاريخ الفكر الاسلامي واتجاهاته ، وانشأ موجزا فيه ، ألقى قسما منه في بعض المؤتمرات في بيروت ، وقد نشر في بيروت مع جملة محاضرات لغيره ، ثم نشر مستقلاً في القاهرة .. وفي سنة ١٩٦٨ قدم الى المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة بحثا بعنوان (الى



في المؤتمر السنوي الاربعين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ ١٩٧٤ ..
الدكتور حسن سبح ، الاثري ، احمد توفيق المدني

خط سير جديد في تدوين تاريخ الادب العربي) ذهب فيه مذهبا يخالف المنهج الأوربي ويقول فيه « إنَّ بريق هذا المذهب الأوربي في تدوين تاريخ الأدب يذهب بأبصار كتاب العرب المحدثين ، وهو يخالف طبائعنا وقيمنا ، وتوائم طبيعته طبيعة الآداب الأوربية عامة ، بوحدتها المتعددة والصغيرة وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وقوميا ، وانفصالا لغويا وأدبيا من حيث استقلال كل وحدة منها بلغتها الخاصة وأدبها الخاص » ، ونخلص من هذا البحث القيم والمثير الى أننا نجد أنفسنا من المذهب الأوربي بازاء قانون خاص ، إنْ صلح لكتابة تاريخ عام به لآداب هذه الوحدات الأوربية الصغيرة ، فان التجارب في تطبيقه في كتابة تاريخ أدبنا ، قد انتهت بنا الى الاخفاق في ابراز قسماته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة وتوضيح أصالته ، وهي تعلو على الخلاف والشبهات ، فلا مندوحة لنا إذن من التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقق صورته الصحيحة على وجه أفضل » .

بغداد

ودفعه حبه لبغداد ـ مسقط رأسه الى العناية بتاريخها ، ووجد شيخه الاكبر قد سبقه الى ذلك وألف لها أربعة اجزاء ،

هي : اخبار بغداد وماوالاها من البلاد ، والمسك الأذفر في مزايا رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر - وقد خصصه للبغداديين ، ومساجد بغداد وآثارها ، والأمثال البغدادية .. فبدأ (الأثري) بكتاب مساجد بغداد وآثارها ، فهذبه وبوّبه ، وأضاف اليه زيادات ، وكتب له مقدمة وطبع سنة ١٩٢٧ ، وطبعه الشيخ محمد أمين عالي آل باش اعيان العباسي البصري وزير الأوقاف ، وقد ضمنه آراء إصلاحية أثارت حفائظ بعض الشيوخ فأقاموا عليه دعوى جزائية ، فدافع في المحكمة عن نفسه وآرائه في الاصلاح الاسلامي دفاعا مجيدا ، فبرىء وخرج رافع الرأس . وقد نشر دفاعه في جريدة العراق . وثنى على هذا الكتاب بنشر قطعة من (المسك الاذفر) عهد بها الى صاحب المكتبة العربية ، وعلق عليها تعليقات مقتضبة غفلا من اسمه ، اذ كان يتطلب النسخة الكاملة من الكتاب ، وقد ظفر بها وأوسعها تحقيقا وتعليقات ، ثم نشر كتاب شيخه (تاريخ نجد) وقد طبع في القاهرة مرتين .. واتيحت له في عهد التلمذة نسخة مصورة من كتاب (مناقب بغداد) المنسوب الى الامام ابن الجوزي البغدادي فحققها وعلق عليها ونشرها برا ببلده وتاريخه .. وعنى بالنظر في تحقيق جزءين من (تاريخ ابن

عساكر) الذي نشره مجمع اللغة العربية بدمشق ، فنقدهما في مجلة المجمع العلمي العراقي نقداً مسهبا .. وألف مؤخرا كتاب (ذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحروب وحملات نادر شاه على العراق في رواية شاهد عيان) .. وقد نشره المجمع العلمي العراقي في جزءين من مجلته ، وأفرده في كتاب .. وهو دراسة وتحقيق .

لاعجب .. فهذا الشيخ (الأثري) الذي تترنح السنون في ذاكرته التي فيها الحزن بقدر القوة ، مازال يصوغ نظرياته في

الخصوم والأصدقاء !

ونشب جدل بيننا .. حتى قلت له : أيها الشيخ من هم أصدقاؤك ، ومن هم خصومك ؟ قال :

- الادب الصحيح الذي يقترن بادب النفس ، هو النسب الذي يؤلف بيني وبين الأدباء الحقيقيين ، ومنهم جمهرة أصدقائي في الوطن العربي الكبير . أما خصومي فلست أعرف مَنْ هم ، وفيم يخاصمونني ؟ أعلى عقيدتي ؟ ام على شيء آخر ؟ واين لقيت هؤلاء فوقع الخصام بيني وبينهم ؟ وهل في هذه الحياة الفانية مايستوجب ذلك ، وكل زائل وفان ؟ ان خصمي الحقيقي هو أنا مَنْ أخاصمه ، ولم يقع لي ذلك الا في الدفاع عن عقيدة تدين بها أمتي ، او عن حقيقة من حقائق

التاريخ بنضارة الزمن ، بمثل ما كان تلميذا في مدرسة الألوسي يصوغ السير والحكايات .. لاعجب ، فهذا العلامة يخترق الزمن .. ويخترق شيخوخته كلما كبرت معنوياته ، ومعنوياته ايمان ما أشد نصوعه في أعماقه ! وما أشدَّ نصوع هذا الشعر الذي قاله قبل ستين عاما ، وهو أيضا نصوع التاريخ في هذا الشعر :

نجدةُ الأوطان في أنفسنا
ساعة المحنة دينٌ أيُّ دينْ !

أمتي يدفعني الحفاظ عليها الى الذود عن حياضها استبقاءً للوجود القومي !

الأدباء الكبار !

ويقال عنك في المجالس الأدبية إنك تتحاشى تقديم الأدباء الكبار أو ذكر اسمائهم في أحاديثك ، قال :

- للناس ان يقولوا مايشاؤون ، فليس لي على مايقولون سلطان ، وهم مجزيّون بها إنْ خيراً فخيراً ، وانْ شراً فشراً .. ولست أدري ما الذي يعنونه بذلك اذا صح أنني أفعله ؟ الأدباء الكبار أدبهم يقدمهم ، ويركب أعناق العصور الى آخر الدهر ، وأنا أكره فضول الكلام وأعزف عن الخوض في زيد وعبيد ، ولكل مقام مقال يصرف فيه على نحو يليق بكرامة المتكلم ، وأعوذ بالله من التَّفيْهُق وقول الزور ، وعفا الله عمن يتقولون ويفترون !

التوجيه الكريم ..

رأيت كتبه المخطوطة أكبر حجماً من كتبه المطبـوعة ، وتساءلت : ياشيخُ هل هذا همٌ يشغلك في حياتك العلمية ؟ قال :

- حجم كتبي المخطوطة وكتبي المطبوعة متوازيان تقريباً ، ولتأخر طبع كتبي المخطوطات عوامل مختلفة تتردد بين مشاغلي وأسفاري ومرضي ، مع ضيق الوقت عن استيعاب كل شيء ، الى جانب ضعف وسائل النشر عندنا ، فما زال النشر في العـراق يفتقد تجار الكتب الكبار ، والمؤلف مهما كانت قدراته لايملك كل مايتطلبه الطبع والتوزيع والتعامل مع الباعة من العطاء والأخذ والمراجعات ، فلم يبق لدينا الا الجهات الرسمية ، فهي وحدها القادرة على الاضطلاع بهذا الشأن ، ووسائلي اليها متعذرة أو أشبه بالمتعذرة مالم يكن الطلب وارداً منها إليّ . وقد حصل لي شيء من هذا غير مرة ، فنشر لي المجمع العلمي العراقي ، كما نشرت لي وزارة الثقافة والاعلام في السنوات الخوالي ، ولي في المجمع متسعٌ ولكنني أكره المزاحمة ، وقد سنحت الفرصة الآن بأن تضطلع وزارة الثقافة والاعلام بالتوجيه الكريم الذي صدر من سيادة الرئيس صدام حسين تكريماً وتقديراً ، وأرجو أن أستعيد نشاطي قريباً ، فأحقق هذا المطلب السعيد .



مع علماء العربية

الفصل الثالث

المُصْلح

وكان بباعث فطري يعدّ نفسه أن يكون (مصلحاً) وكأنه رزق قدرة هذا (المصلح الاجتماعي) الذي يدعو ويغير في دعوته ، وكأنه رُزق موهبة هذا (المصلح الاخلاقيّ) الذي يحارب بسلاحين في آن واحد : (القلب واللسان) ، ففي فجره الأول (.. وعندما أخذ الدرس على أستاذه الأول العلامة علي علاء الدين حفيد الامام أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي) ، كان يكتب أسئلة ويحاول أن يجيب عنها :

من ينقذ هذه الأمة ..؟

لماذا نتعلم علم الأخلاق ، ولانطبق شريعته في المجتمع ..؟

غاب المصلحون ، ولم تغب روح الأمة .. كيف ..؟

وفي (المدرسة المرجانية) الشهيرة ببغداد أجلسه أستاذه الأول في حلقة صغيرة ، وأخذ يستفسر منه بأسئلة عن شأنه وعن أوصافه في المستقبل ، فكلمه الأثري (طالب العلم الجديد) بأسئلة :

هل العلم أداة تغيير ..؟ نعم !

اذن ، فلنبدأ بأنفسنا ..؟

وكان ، دائماً ، يسأل بضمير الجمع ، ويجيب بضمير الجمع .. وكأنّ (قدرَهُ) يسّر له أن يولد في (ضمائر الجمع) ،

هم ، نحن .. وهكـذا ، في (هم) أولئك الذين جعلوا مجتمعهم متخلفاً في شرايينه ، و (نحن) هؤلاء الأحياء في ضمائرهم .. الذين يعانون قدر مجتمعاتهم المتململ في حياة قلقـة لابد أن تتغير الى الأعـلى والأفضـل . ومن لحظته صمم أن يكون (مصلحاً) في الأسئلة والأجوبة ، في كل مـايدعـو الى الأفعال الانسانية والحضارية النبيلة ..

ونستقرئ (الأثري) في كتبه ، وفي أفكاره ، وفي شعره ، بل (الأهم في شعره) فنجده يرتاد (المقوّمات الأصيلة) التي تجدد بنْيَة الأمة وتحقق ذاتها بين الأمم القوية ، وتعيد اليها ـ بعد طول الضياع ـ مجـدها العـريق وعزتهـا ، وسيادتهـا ، وشأنها الرياديّ العظيم في إنشاء الحضارة الانسانية ، وهذه المقومات التي يرتادها وينتحيها دائماً ، تتمثل في عناصر ثلاثة :

١ ـ عنصر (اللغة) وهي لسان الأمة وجامعة الشمل وموحدته وموطّدته .

٢ ـ عنصر (العقيدة التوحيدية) وماتنطوي عليه من المثل العليا ، وفي طليعتها : مكارم الاخلاق ، والأخوة ، والعدالة ، والمساواة في الحقوق والواجبات ..

٣ ـ عنصر (خصائص الأمة العظيمة) التي أُخْرجت للناس معلّمة وهاديةً وليست جابية ، أو مستغلة ومستعلية ، فخرجت

بهذه الرسالة العظمى من بين الرمال والصخور الى أمم الأرض ، وكانت قلةً قليلة ، لم يزدْ عدّها على مئة ألف انسان الا قليلاً ، استطاعت أن تبسط عقيدتها مابين مشرق للشمس ومغيب ، من بلاد الغال (فرنسة) الى تخوم الصين خلال نحو ثلثي قرن ، وأن تؤثّل في العالم أنبل حضارة انسانية أخلاقية ، لاتزال هدف المفكرين الانسانيين من جميع الأمم .

هذه هي محاور أفكار (الأثري) ، يفيضها فكراً وعقيدةً وسلوكاً وطموحاً ، كان .. ومازال وهو ماض في سبيله الى نهايته ، وهو مطمئن الى أنه السبيل الوحيد الذي يجدد رؤيته في الحياة ، ويجدّد فكرة تطور الآراء .. ويقول : (نعم أنا أعنْي التطور في الآراء والأفكار) . والتطور الى الأعلى والأصلح والأنفع ، هو هدف كل عالم مفكر ومصلح ، وهو غير التلاعب بالألفاظ والمزاعم ، وهو ذات التطور الذي يؤكد (الأثري) في كتبه الاصلاحية : (الذي يجب أن يكون من ضمير الأمة ومن خاص طبيعتها وحاجتها في مختلف شؤون الحياة ، بعيداً عن الاجتلاب والتقليد تنفخاً باسم الانفتاح والمعاصرة) . ومع هذا ، فان من الناس من يتهم (الأثري) بالتعصب ، يقول هنا (نعم ، أنا متعصب حقا عن بصيرة وعلم ولكن للحق وللخير ، ولمقومات الأمة وكل مايعز الوطن وسيادته وكرامته ، ومايسعد

كل إنسان فيه حيثما عاش من أرضه الطيبة) ..

الجهاد

ومن صفات هذا (المُصلح) .. الجهاد ، وكان (الأثري) يجاهد ، وجهادُهُ الأول بل الدائم في سبيل (فلسطين) منذ كتب في سياسة الاصلاح في العشرينات .. وبدأه في عنفوان النشأة والشباب ، الأوَّلِ سماعه بوعد (بلفور) الذي قطعته بريطانيا للصهاينة لاقامة دولة لهم في أرض (فلسطين العربية) ، وقد أشار اليه في اول قصيدة قالها في الثورة السورية سنة ١٩٢٥ مشيداً بها ، ثم مضى يكتب القصائد في هذا الشأن حتى بلغت ١٣ قصيدة ، ويحبر المقالات الطوال عند كل سانحة ، ومن اهمها ماكتبه في الجزء الخاص من (مجلة العالم الاسلامي) بالقضية الفلسطينية ..

وشغلته قضية (فلسطين) ، لا في شعره وحده ، وإنما في هذه الحركة الدائبة التي أعلنها (الأثري) في الخطب وفي منابر الجمعيات ، وفي الرسائل المتبادلة بينه وبين كبار زعماء الأمة ، وفي صدر شبابه في سنة (١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١م) يستجيب لدعوة تلقاها من مفتي فلسطين الأكبر (السيد محمد أمين الحسيني) ، لحضور (المؤتمر الاسلامي العام) في

(القدس) ، وكان هو وعبد القهار مدكر الشاب الأندنوسي (الذي درس في القاهرة وعين من بعد سفيراً) أصغر عضوين سنا في هذا المؤتمر الكبير .. وهناك تعالى هتافه الوجداني ، وهناك شارك في موضوعات المؤتمر ، وحاول إيجاد فرع له ببغداد وآخر في النجف ، وتبادل الرأي ، وتفاعل فيه مع الشخصيات العراقية التي حضرت هذا المؤتمر ، وهم : العلامة الشهير محمد حسين كاشف الغطاء ، والعلامة الواعظ اللسن الحاج نعمان الأعظمي ، والقانوني الضليع حسن رضا ، والقانوني الأديب ابراهيم الواعظ ، ونائب الموصل سعيد الحاج ثابت ، وماجد القرغولي ، ومفتي الموصل السيد حبيب العبيدي ، كما تعرف (الأثري) في هذا المؤتمر الى شخصيات شهيرة في عالم السياسة والعلم والأدب : شكري القوتلي ، وعلي العابد ، ورياض الصلح ، ومحمد علي علوبة ، وعبد الرحمن عزام ، وشوكة علي ، ومحمد اقبال ، ومحمد رشيد رضا ، وفؤاد الخطيب ، وخير الدين الزركلي ، وآخرين من علماء اورال ويوغسلافيا ... وقد امتدت ايام هذا المؤتمر نحو اسبوعين ، وأراد اليهود وبعض الملوك احباط المؤتمر جملة وتفصيلا ، فأشاعوا قيام الانقسام فيه ، وعم حفلة افتتاحِهِ ليلة ٢٧ شهر رجب ١٣٥٠هـ الانتشار والصخب ، فتداركه

المفتي الحسيني وأطفأ الفتنة .. واستمر الاحتفال الى نهايته بكثير من الجلال ، وكان من خطبائه .. المفتي الاكبر ، والثعالبي ، والأعظمي ، وعزام . أما الشعر فقد انفرد به (الأثري) ، فانشد فيه داليته (تحت قبة المسجد الأقصى) ، وقد احتفلت الصحف بنشرها :

لمن الوفودُ تسيلُ سيل الوادي ؟ ملءِ الحمى منها ،وغصَّ النادي
ألقتْ بثالثة العواصم رحلها لجلاد عادية ورمِّ فسادِ
نسلتْ اليها عند أول دعوة مثل السيوف تُسلُّ من أغماد
من كل فجّ ، فوق كلِ طمِرَّةٍ تُدني بلحْظٍ شاسعَ الأبعادِ
تحدى بغازٍ في الفؤاد يهيجُها لا بالسياط، ولاغناءِ الحادي
وفؤادُ راكبها أحرُّ .فان خبت قبست لهيباً منه للإسآد
لبيّكَ، بيت الله، إنّا معشرٌ يقظُ الغِرارِ مُجرَّدٌ لجلادِ
خذنا بكفك، ثم جرّبنا تجدْ ايَّ الظُبا في أيّ يومِ جهادِ !
خسأتْ (صهاينةٌ) تريدُك عنوةً بغياً، وشُلُّوا بالجهادِ بدادِ

والقصيدة ذات مقاطع طويلة حارة ، فيها وعي مبكر بأهم قضية قومية شغلت أذهان أحرار العرب منذ بداية العشرينات ..

اما المستعمرون والصهاينة فقد ملؤوا الصحف بالدس الرخيص حول الفرقة في هذا المؤتمر (الذي تُعَدُّ الوثائق

الصادرة عنه من اهم الوثائق القومية في القضية الفلسطينية) ، فهؤلاء كذبهم أعضاء المؤتمر عند أول صلاة جمعة .. فقدم فريق من أعضاء المؤتمر (وهم : عبد العزيز الثعالبي ، ورياض الصلح ، وخير الدين الزركلي ، وعجّاج نويهض ، والعلامة الأثري) طلباً الى ديوان رئاسة المؤتمر أن يعلن في الصحف المحلية والعالمية إجماع المؤتمر على الائتمام بصلاة الجمعة في المسجد الأقصى بالشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء المجتهد النجفي ، فنفذ الطلب بمثل لمح البصر ، وصلى المسلمون صلاة الجمعة في المسجد الاقصى بامامة الشيخ ، وقد أربى عددهم على مئة ألف مصلٍ من الفلسطينيين ، تتقدمهم الوفود الاسلامية من اندونيسيا وأقاصي الصين في الشرق الى يوغسلافيا في الغرب .. وهكذا انتصر المؤتمرون المصلحون ..

في بلاط الملك

ومن خلال الوثائق التي بين أيدينا ، عرف أن (الأثري) لم تفتر حركة (المصلح) في قلبه بعد رجوعه مباشرة من (مؤتمر القدس) ، فقد قدم هو وبعض الشخصيات البغدادية الى وزارة الداخلية طلباً بالموافقة على انشاء فرع للمؤتمر في بغداد

وفرع آخرَ في النجف ، لمواصلة الجهاد في سبيل فلسطين ، ولاذت وزارة الداخلية بالصمت . ومن عجب أن جاءتهم الدعوة من البلاط لمقابلة الملك فيصل الأول .. ولم يغب عن فكرهم سر هذه الدعوة من جانب البلاط و « والضغوط » التي يواجهها الملك من دار الاعتماد البريطاني ببغداد ، فلبوا الدعوة وخاطبوا الملك ، وبدأ الملك كلامه بالثناء عليهم وعلى إخلاصهم للأمة بكلام مجمجم فيه كثير من التردد والحيطة ، كما يقتضيه وضعه الخاص .. وانتهى الى أن القوانين المحلية لاتسمح باقامة صلات رسمية مع ما وراء الحدود ، وتكلم الجالسون وأعطوا بعض القول ، الا (الأثري) وقد جلس في الطرف ولم ينبس بكلمة .. وساد صمت ..... وحين شعر الأثري (الشاب ذو البأس) بتهيؤ الملك للقيام إشعاراً بانتهاء المقابلة ، خاطبه قائلاً :

هل لجلالته أن يأذن لي بالكلام ؟

فأشار (فيصل الأول) : أنْ نعم !

فقال له (الأثري) : ياصاحب الجلالة ، هل من الممكن مراجعة القانون ؟

وكان رئيس الديوان (السيد رشيد عالي الكيلاني) واقفاً عند رأسه ، فأشار الملك اليه باحضار القانون ،

فأحضره ، وأمره بأن يقرأ المادة المانعة فيه ، قائلاً بلغته الحجازية « إكْرأ » فكرأ .. واذا المادة خلوٌ مما قاله ..!

فقال له (الأثري) : ياصاحب الجلالة ، بقي الشأن منوطاً بامركم ..

فأجاب السيد الكيلاني : العبرة بالمعاني لا بالمباني !

ولم تكن طبيعة المقام لتسمح للأثري بالرد .. فنهض الملك مودعاً ، وخرج الوفد (الأثري ورهطه) بالصمت عن (لا) و (نعم) . ولكن جاءتهم الموافقة على إنشاء الفرعين من وزارة الداخلية بعد وقت قصير .. بعد إشارة من الملك (بالطبع) .. وأنبأ البغداديون الشيخ كاشف الغطاء بما تم ، فدعاهم الى النجف وحلوا ضيوفاً عنده في بيته ، وأولم لهم أعيان النجف الولائم الفاخرة ، وزاروا جمهرة من علمائها في مدارسهم الخاصة ، ومنهم (رجل الاجتهاد الوطني عبد الكريم الجزائري) ... وقرر الجميع أن يكون الاجتماع العام في مدرسة آل كاشف الغطاء ، وتقاطر المدعوون اليه من شيوخ وشبان ، وخطب الحاج نعمان الأعظمي في الجمع ، ودعا الشبابُ النجفي (العلامة الأثري) أن يخطب فامتنع ، وقال لهم : حسبكم الخِطيب الأول فلننشط الآن للعمل وتأليف فرع

المؤتمر ، وتسمية رئيسه وأعضائه . فبدأوا ، فسموا الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، واذا بلغط من جانب بعضهم - من منافسيه - يشغبون ويعارضون ، وعلت أصواتهم .. وهنا ثارت ثائرة (الأثري) كما ثارت على المشاغبين على عبد الرحمن عزام في حفل افتتاح المؤتمر العام في المسجد الأقصى - فنهض هائجاً ، وصاح : سلام عليكم أيها المسلمون الموحدون ، ومضى يهدر (كما يفيد بعض من شهد هذا الاجتماع) ويندد بالمخالفين : ومما قاله لهم : «.. أيها القوم ، يظهر لي أنكم داخل سور النجف ، لم تأتكم أنباء مايجري وراءه .. في القريب القريب وفي البعيد البعيد عنه من مؤامرات علنية وخفية تنتحي وجودكم والذهاب به مع سافيات الرياح .. أخرجوا الى العالم ، وطوفوا ، واسمعوا وعوا ، وتدبروا ، واتقوا الله ، هل تحسبون هذا السور واقيكم من الأسواء ..؟ (ومما اعرفه من شأن هذا الاجتماع ، أن الذين عارضوا الشيخ كاشف الغطاء كانوا من الرعيل القومي الأول في النجف ، ولامجال هنا للإفاضة في بسط اسباب ذلك ..) ....(.... اما عن التطور الذي حدث في مناقشات فرع المؤتمر في النجف وبغداد ، فسأرجيء الحديث عنه الى زمن آخر بعد استكمال وثائق تلك المرحلة ، ولاسيما

وثائق الاجتماع في النجف) .

في الاوقاف

وهذا (المصلح الأثري) اخذ في (بغداد) ينشر خطباً ومقالات عن (مؤتمر القدس العام) في صحف الثلاثينات ، ويعقد ندوات في شرح أهدافه ، وكان يغلب على كتابته ، او خطبته ، حس لغوي ، وكان يلهب الشباب ، ويعرفهم بفلسطين ، الجرح ، او المستقبل .. وانتبه اليه ابناء وزعماء ، وقال ياسين الهاشمي (وكان الزعيم السياسي الاكبر) : هذا (الأثري) مصلح في الدين والأخلاق ، وأوفده أيام رئاسته الوزارة في ربيع سنة ١٩٣٦ الى مصر (شهرا كاملا) ، ليأخذ خبرة ويعطي خبرة .. وفي هذا الشهر أدّى (الأثري) دورا مهما في صحافة مصر ، محاورا في شؤون السياسة العربية ، وقال شعرا في ندوات الكتاب والعلماء ، وخطب في مصير العرب ، وذهب الى الازهر ، يدرس فيه أنظمة التعليم في خلاياه ومعاهده ، وعقد أواصر النية الموحدة مع شيخ الأزهر ، وكانت رئاسته الى الشيخ الاكبر محمد مصطفى المراغي الذي رحب هو وعمداء الأزهر بالاثري (العلامة الشاب ذي البريق العصري) ، ورحل الى طنطا والاسكندرية ، ليدرس نظم

التعليم في معهدي الأزهر فيهما ..

ويعود الى بغداد ، وينقل خبرتـه الى رئيس الوزراء في دراسـة مفصلة ، فيهـا الحس الإصـلاحي الذي عـرف بـه (الأثري) ، فما لبث الزعيم يـاسين الهـاشمي أن عهد اليـه (مديرية منطقة أوقاف بغداد) في تموز ١٩٣٦ ... ليبدأ جولة أخرى في عملية الاصـلاح في المؤسسـات الدينية .. ويقـول (الأثري) : « .. وماكدت أمضي في تنفيذ خطتي الاصلاحيـة حتى طوح انقلاب عسكري مدبر بالوزارة الهاشميـة الوطنية المخلصـة في ٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ .... فلبثت الى صيف ١٩٣٧ ادير الأعمال على النحو التقليـدي ، وبرمت من جملة الوضـع السياسي ، وفجعت بثـاني ولديّ (مُخلّد) ولم يكمل عاما ، فسافرت الى (دمشق) لأستجم في مصايفها من العناء والحزن ، وحدث وأنا بدمشق انقلاب عسكري مضاد ، فعدت الى بغداد ، وطلبت من رئيس الوزراء السيد جميـل المدفعي واليه الاشراف المباشر على الأوقاف ، أن أعود الى خدمة العلم ، فعهد الي كرسيّ المفتش الاختصاصي بديوان وزارة المعارف » . فتألق فيه ومارس دور النابغة !

وفي سنة ١٩٥١ (ندب لتدريس الأدب وفلسفة الأخلاق

في كليـة الشـرطة) ، وانتخب عضـواً في مجلس شـورى الاوقاف ، وجدد انتخابه في سنة ١٩٥٥ ، وعندما قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، أصدر مجلس السيادة مرسـوماً بتعيينـه مديرا عاما للاوقاف مرتبطا برئيس الوزراء .. وبقي في هـذا المنصب الى أوائل سنة ١٩٦٣ .. وبحسب وثائق الاوقاف أن (الأثـري) نفذ في هـذه المدة (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣) مشـروعه الاصلاحي الذي أعده في سنة ١٩٣٦ ، فأنشأ المدارس وعمّر المساجد ، ونقل لأول مرة في تاريخ الأوقاف الريازة المغـربية الاندلسية الى بغداد في الجامعين الكبيرين : جامع الامام ابي حنيفة وجامع ١٤ رمضان .. وذهب الى كلية الشريعة فامدها بأساتذة مصريين ، ورفدها بخمس مدارس أقامها في الموصل في الشمال ، والرمادي ، وبغداد ، أساسها الأول الذي تقوم عليه : القرآن الكريم وحفظه ، والحديث الشريف وتدارسه ، علوم العربية .. وتفيد بعض الوثائق ، أن (الأثري) عين في أيام يته الأوقاف عضوا في اللجنة الخاصة لمحاسبة رجال العهد كي (رؤسـاء الوزارة والوزراء ورؤساء مجلس الأعيـان واب ، وكبار الموظفين) اعتمادا على سمعته وشجاعته .. تنفيذا لقانـون : (من أين لك هذا ؟) ..

الأثري .. الشاعر

وفي عباب هذا السلّم من المسؤوليات ، جاءه الشعر غير مرة ، بل كتب قصيدته وهو في أوج فعله الوظيفي ، لأن الشعر ولد فيه حرا ، طليقا ، ولم يفرض هو نفسه عليه ، ولأن هذا الشعر كان ينمو فيه غناء للروح ، وعاطفة تفجر فيه آدميته ، وأحاسيسها تجاه الآخرين .. فكتب القصائد ذوات النفس الطويل (وهو من الشعراء العراقيين الذين عرفوا بطول النفس كما يقول عنه النقاد) يناجي فيها عقيدته ، ويدافع فيها عن منهج هذه العقيدة بروح وثابة ، هي من الأرواح التي لاتعرف الوني ، تخترق زمنها ، وتبحث عن الجميل في هذا الكون ، وعن الأجمل في هذه الوحدة الانسانية التي دعت اليها عقيدته ، وقصته مع الشعر هي كقصص أولئك الشعراء الذين اختارهم القدر لأن يكونوا شعراء بوسيلة الوجدان والذاتيّة .

فجره الشعري

وكانت دراسته الأولى على العلامة علي علاء الدين الألوسي ، وهو غض الاهاب يدرج في عنفوانه ، وكان في أثناء ذلك يقرزم الشعر أبياتا بصر الجنين ، فنظم منها في مدح استاذه أبياتا وقدمها اليه (بخجل التلميذ) ، فابتسم الاستاذ ابتسامة من يدرك (حرفة الشعر) وقال له : يابني .. ثابر ،



رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الأثري ، رئيس جامعة الأزهر - ١٩٨٥

واحفظ ماكتبت .. فأدرك (الأثري) التلميذ هذا القصور في شعره (ولم يكن يومئذ قد ثقف شيئا من علم العروض) .. ثم جاءه أستاذه بأبيات من الشعر يقرظه تشجيعا لتلميذ نابه ، وطلب منه تشطيرها ، وهي قوله :

ثابرْ على العلم وانهجْ
لدَرك مارُمْتَ نَهْجَهْ
فانْ تَزِدْ منه حظًا
يا (بَهْجَ) زادكَ بَهْجَهْ
والعلمُ فيه حياةٌ
تُفْدى له كلُّ مُهْجَهْ
فاجعلهُ لهجةَ خيرٍ
فانّهُ خيرُ لَهْجَهْ

وقديما صنع هذا الصنيع مع تلميذه الشاعر خير الدين الهنداوي ، فنظم باسمه (الآجرومية) وطبعها في بيروت سنة ١٣١٨هـ ... وقصص الوفاء بين التلميذ والأستاذ أو بين الأستاذ والتلميذ لها مآثر في تاريخنا العربي .. على كل حال ، لما سمع (الأثري) من أستاذه هذه الأبيات ، في مدحه كتبها بمداد الفخر ، وطلب منه أستاذه تشطير هذه الأبيات ، فقال له (الأثري) : أستاذي ما التشطير ؟ فأرشده اليه حتى تعلم

صنعة التشطير .. وقد ظهرت هذه الأبيات في مقدمة ناشري كتاب العلامة علي علاء الدين الآلوسي (الدر المنتثر) الذي طبعته وزارة الثقافة والاعلام ، ويقول (الأثري) : « كانت الابيات جميلة .. وجربت تشطيرها فلم أفلح ، لأن مادتي الغالبة عليّ هي اللغات الأجنبية ، التركية والفارسية والانكليزية والفرنسية .. ومادتي في العربية كانت لاتزال نزرة عدا ماطبعه القرآن الكريم في نفسي من الحس اللغوي ، وماتعلمته إبان قراءتي القرآن من تعلم مخارج الحروف وتجويد التلاوة » . ويعود السبب في ذلك الى أن (الأثري) وجيله كانوا يدرسون في مراحلهم الأولى في مدارس العثمانيين ، باللغة التركية .

الخوالج

هذا الهاجس الشعري كما قلت ، لم يقصده (الأثري) قصدا ، اذْ لم يكن يدري ماهو ؟ وكيف يقال ؟ وماقواعده ؟ وضوابطه وأوزانه وقوافيه .. ماهي ؟ وكيف تستحدث ؟ وانما شعر به يختلج في صدره معنى أو عاطفة يريد الافصاح عنها بالبيان ، ولم يكن مالكا لهذا البيان بعد ، ولكن سرعان ما ازدهر في نفسه كلما تقدم في الدرس وأوغل فيه ، فاذا هو ـ بعد

مدة قصيرة ـ ينظم هذه الخوالج كلما غلبته على نفسه ، واذا هذا الشعر يصبح جزءاً من حياته ، تمليه عليه النفس فيقرضه مقاطع أو قصائد ، مندفعا مع الرضا أو الغضب ، أو مع الحب والكره ، طبعا من غير تكلف له ، أي : أن نفسه اذا امتلأت بمعنى من هذه المعاني وغيرها ، استجاب من فوره للشعور الثائر أو المتوهج ، واستقام له القول فيض الطبع .. وهو أشبه مايكون بتغريدة الطائر تنبعث منه متى طابت نفســه . اذ هو يحلق في الجو حرا طليقا سابحا في ألق النور ، أو هابطا على خميلة من ورد وشجر وماء ، أو قافزا من غصن أيكة الى غصن شجيرة ، فيطلق تغريدته طبعا وانسجاما مع هذا الجمال المطلق الذي يفيض من كل مكان فكانت طلاقته على الطبع !

وقد سأل (الأثري) قديما ، عالم مصــري جليل ، هــو مـؤلف كتاب (الأسس النفسيــة للابـداع الفني) في جملة ماسأل : عن منحاه في قرض الشعــر ، وصلة شعره بحياته الواقعية ، وانطباعاتها وانفعالاتها .. فأجابه : « أنا في عمل الشعر أجري مع تيار العاطفة التي تستولي عليّ ، والحالة التي توحي اليّ القول ، فأبدأ بالمطلع ، وأسلسل الكلام ، قلما أقدم أو أؤخر ، لاأفكر الا في اطّراد الشعور وانسجامه ، واستيفاء المعاني والأخيلة في نسق آخذ بعضه برقاب بعض . أما نهاية

القصيدة ، فأكاد أراها واضحة قبل أن أبلغها ، وأنهي القصيدة حيث كنت أقدر لها ، وقلما أفعل غير ذلك » .. هو اذن لايخرج في هذا الرأي عن (عمود الشعر) ، وعمود الشعر : تلك التقاليد الفنية في نظم الشعر التي مشى اليها أوائلنا ، دون التفات الى يمنة أو يسرة ، أو دون النظر الى اية حركة تفعل في هذا (العمود) تغييرا .. ويذهب (الأثري) كما ذهب أسلافه القُدامى من أن هذا الشعر الذي يكتبه هو :

صعبٌ ، وطويل سُلّمهْ ، لايرتقي فيه الذي لايعلمه .

ولهذا يدافع عن شعره بقوة ، ويدافع عن القافية بقوة ، وعن الأوزان ، وعن إيقاعات هذه الأوزان ، وبالجملة انه يدافع عن الصورة والمضمون في عمود الشعر . وينقل لي (الأثري) دفاعه هذا شعرا بقصيدة قرأها عليّ ، بلغت تسعة وثلاثين بيتا ، يقول في مطلعها :

الشعرُ ماروّى النفوسَ مَعِينُهُ
وَجَرتْ برَقْراق الشعورِ عيونُهُ
وصفت كلألاء الضياء حُروفُهُ
وزهت بوُضّاءِ البيانِ متونُهُ
متألقُ القسَمات ، فتّانُ الرؤى
يزهو صِبا الفصحى الطرير رصينُهُ

ثم يفنّد بحسب (اجتهاده) في الشعر آراء بعض المجددين الذين رأوا أن الشعر العربي بقي جامدا بعيدا عن مظاهر التفاعل في الحياة .. ويفندهم شعرا :

أينَ الجديدُ البكـرُ .. ليس بظالعٍ
مشيـاً ، وليس بنـاصـلٍ تلوينُـهُ
الواثبُ الروحِ ، الأصيـلُ شعورُهُ
وخيـالُهُ ونُـزوعُـهُ ، ويـقـيـنُـهُ
تمتصّ من نبـع البيـان عـروقُـهُ
ويُـجلّهُ إيـقـاعُـهُ ، ويـزيـنُـهُ
زاهٍ بـأبـكـار التـخـيُّـل ثـوبُـهُ
لاعُـورُهُ تـنتـاشـه ، أو عُـونُـهُ
يستنّ سحـرُ الحسن في اعـطافـه
ويـتيـهُ مـنـهُ رقيـقُـهُ ومتـيـنُـهُ
وكـأنـمـا سُقـي الرّحيـقَ مُعـلّلاً
فتـورّدتْ وجَنـاتُـهُ وعـيـونُـهُ !

انه يريد أن يكون هذا الشعر اغناءً يطرب الاحساس ، وأن تنسجم النفس مع هذا الاحساس ، ورحم الله حسان بن ثابت عندما سنّ (للأثري) ولجيله هذا النهج في الشعر بقوله :

تغنَّ بـالشـعـر إمّـا انت قـائـلَهُ
إن الغِنـاءَ لهذا الشعـرِ مِضْمارُ !

ديوانه

وديـوانه الكبـير ثلاثـة اجزاء ، نشر منـه الجزء الاول بعنوان (ملاحم وأزهار) في نحو أربع مئة صفحة .. صدر عن (المجلس الأعـلى للعلوم والآداب والفنـون بمصر) في سنـة ١٩٧٤ بتوصية من (عزيز أبـاظة) ، أما الجـزء الثاني فلم يطبع ، وهو الذي ضم قصائده التي قرضها في معتقلاتـه في الفاو وسامراء والعمارة خلال ثلاثة أعوام من أعـوام الحرب العالمية الثانية ، سمى هذا الجزء : (هتاف الحريـة .. وراء الأسلاك الشائكة) . و أما الجزء الثالث ، فلم يستقر بعد على تسميته .. وكثير من أشعار هذين الديوانين قد نشرته الصحف اليومية والمجـلات الأدبية في العـراق والشام ومصر والربـاط والرياض .. وما برح يواصل رحلته مع الشعر ، ويرسل فيه القصائد الغُرر ..

وديوان (ملاحم وأزهار) تدور فنونه في (٩٠) قصيدة تنتظم في ما يشبه بالفصول ، جعل لهـا عنوانـات شعريـة ، فالفصل الأول بعنوان (ينابيع الفيض) ، والفصل الثـاني بعنوان (ملاحم وأمة تتحرر) ، والثالث (عناوين ومجد) ، والرابـع (عبرات الوفـاء والاكبار) ، والخـامس (ملامـح وظلال) ، والسادس (قوارير وعطر) ، والسـابع (طبـائع

ونوازع) .. وقد قدم لهذا الديوان الشاعر الكبير (عزيز اباظة) تليق مقدمته به وبالشـاعر (الأثـري) ، شارحـا فيها مـوهبة (الأثري) وأغراضه في الشعر ، قال فيها : « واطمأنت نفسي الى ان (مصر) التي أشاد بها الشاعر في شعره .. سترحب بـأن تسبق غيرها الى نشر هذا الشعر الصادق الرائق ، وسرني أن (لجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب والعلوم الاجتماعية بجمهورية مصر العربية شاركتني هذا الرأي ..» وقد وزع هذا الديوان على مدارس القطر المصري ، وطبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طباعة فاخرة وأنيقة ، مشكولا ، ومشروحة مفرادته ، وكأنهم قد أضفوا عليه طابعا تراثيا كدواوين الشعر القديمة .

واذكر انني سألت (الأثري) في صيف العام الماضي عن هذا التأخر في طبع شعره بديوان ، وهو الذي بدأ في العشرينات ينشر أنماطا من الشعر ، فكان يقول لي : لم أطبع شعري خلال تلك المدة ، لأنني حينما أرى في الميدان .. المتنبي وأبا تمـام والبحتري وابن الرومي ، كنت لا أريد أن يكون لي ديوان ضئيل يقف تحت جناح هؤلاء ..

اما نظرة (الأثري) في نقد الشعر ، فتشمل كل مقوماته وادواتـه ، وهي : اللغة الشعـرية المتـألقة ، والمعنى السليم

والجميل والخيال ، والايقاع أو الموسيقى (الوزن والقافية) وتوهج العاطفة ، وصدق الشعور (انسجام الطبع) ... وكل ذلك ينبغي أن يصب في قالب واضح ، وهذا القالب يقوم على خاصيتين : التطوير النفسي وسمو العاطفة ، وهو مايسميه (الأصالة البيانية) . فاذا استوفى الشعر هذه الأصالة كان شعرا اصيلا ، وماعداهُ ليس بشعر ، ومن هنا نشأ الخلاف بينه وبين رواد الشعر الحر ، فهويعارض هذا النمط الشعري ، وينفي أية شاعرية في رواده ، ويقول بعصبية « شناشيل بنت الجلبي .. يامطراً ياحلبي ، و «البوابات» و «عوليس» و «ايزيس» و «الكركرة» » هذه تفاهات وألفاظ تائهة سائبة ومتلاعنة ، وليست شعراً ، ويقصد به (الأثري) شعر السياب !

اعمار ومذاهب

واحتدم الجدل مابيننا ، وقد عرف (الأثري) بالتشدد في آرائه ، ليس في الشعر وحده وانما في كل مايذهب اليه من أفكار ومذاهب في الأدب ، وقلت له : أيها الشيخ الأثري : رب سائل من فئة هذا الجيل المعاصر يسألك هذا السؤال : عندما يتقدم أكثر الكتاب في سني أعمارهم، تظهر لهم الاتجاهات الرجعية في

الأدب ، فكيف تجيبه ؟ قال : « صدقني انني لا أفقه لهـذه (الأنباز) معنى غير ضحالة الفكر ، ان علينا ـ اذا كنا جادين في وضع الأشياء في أنصبتها الصحيحة ـ ان نكون واضحين وموضوعيـين نتجافى الابهـام والغموض ، نسمي المسميـات باسمائها الحقيقية .. فقل لي ـ غير مأمور ـ ماهذه (الرجعية) وما دلالتها؟ لأقول رأيي صريحـا وواضحا لالبس فيـه.. لقد سمعنا اذ نحن صغار في آخر العهد العثماني على لسان بعض الاتحـاديين ـ أعضـاء حـزب الاتحـاد والتـرقي ـ ينبـزون مخالفيهم في السياسة بأنهم (ارتجاعيون) . فان كان مـطلق التخالف والتباين في المذاهب والآراء يسمح باطلاق الأنباز ، فـأنا لا أرى ذلك الا بـاطلا وفسـادا وافسـادا ».. ثم أعـاد (الأثري) عليّ مقولته الجديدة القديمة : أنا لم أجيء الى الشعر تكلفا ، وانما الشعر هو الذي جاء اليّ وفرض نفسه عليّ فرضا ، ولذلك أنا أدعو الى الأصالة وأدين لها في كل شيء .

جيل

وتكاثر الجيل ، هذا الجيل الذي كتب برؤية جديدة هي غير رؤية (الأثري) الى الحياة ، وناقشهم ، في شعرهم وتحركهم في الحركة الشعرية الحديثة . في بعض فقراته يبدو قاسيا عليهم

ويلغي حقهم في التعبير عن خصائصهم ، وفي بعض يبدو هذا المعلم الذي خبر الحياة وصار (مرشدا) يرشد بقوانين ويرسم بقوانين .. حتى قلت له :

ياشيخ .. انت اذن من أي جيل ..؟

قال بلغة الشدة :

« انا من جيل العرب ، أي أمة العرب ، ولست من أمة أخرى من جهة أبي . هذا معنى (الجيل) في العربية الفصحى ، وأنت تستعمله كما يستعمله غيرك في غير ماوضع له أصلا ، وتعني به الطبقة أو أهل العصر ، وعلى هذا فأنا من أهل هذا العصر في وجودي ، مثلك ومثل غيرك .. وليس هذا ماتعنيه طبعا ، انما أنت تعني فكري ومعتقدي ونازعتي في الحياة . ومن يدرس الرجال ينبغي له أن يلتمس ذلك كله في آثارهم ، وآثاري المنبئة عن ذلك مبثوثة ، ومن المفروض ـ وأنت باحث واعٍ ومتقصّ ـ أن تستخلصه منها حرا كما تتبينه في صوابه وخطئه في موازين الحياة الفكرية الأصيلة السليمة ، فضعْني حيث يفرض عليك النظر الأصيل في (الجيل) الذي قدّر لي أن أكون منه ، وأنت مأجور في صوابك أو خطئك ، ولاعتاب لي عليك اذا أخضعت تقديرك لمفاهيمك الخاصة ، فجُرت عن الصواب ، ولاضير عليّ منه ، لأن من يذيع آراءه يكون ملك

غيره ، وللناس فيمـا يرون مـذاهب وليقولوا مـايشاؤون أن يقولوا ، ولكن الحق يبقى أبلج دائماً ، تعيا الأهواء عن اظلامه بظلمها .. وهو ملك البشرية ونسغ حياتها ، وقلت للأثري : انك من جيل رأى ويرى ، وأنا من جيل رأيت وأرى ، وللأجيال فيما ترى رؤى ومدارس ، لكننا نحن من جيل واحد ، نحن وأنت ، أنتم وأنا .. من جيل ينتمي الى أمة الجدل ، من جيل يرى كما كان المتنبي يرى :

الرأيُ قبـل شجـاعـةِ الشُّجعـانِ
هـوَ أولٌ وهْـيَ المـحـلُّ الثـانـي

هل تخاف من شيء ؟

فقال :

« فيمَ الخوف اذا كنتُ صادق القول وبريء النصح وصادق الأعمال .. شيء واحد أخافه ، هو ان يزلّني الشيطان الى عصيان الله في شيء من اوامره ، وذلك ما اغالبه دائما في سري وفي علني بمحاسبة نفسي ، والله يتولى السرائر » .

■ ولماذا يخاف الكتاب من الموت اكثر من غيرهم ؟

فقال :

« أعندك «إحصائية» في ذلك ؟ إن الحياة مالم تشُبْها الأكدار والمنغصات حبيبة الى النفوس ، وكلٌّ يحب ان يُعمَّر عمر (نُوح) عليه السلام ، وان يملك عرش (بلقيس) ، وان يحوز كنز (قارون) .. تلك مآرب البشر ، لكن هيهات هيهات ! ولا يورث هذا الخوف من الموت صاحبه الا عار الجبن فيما لاسبيل الى دفعه » .

■ هل رشح الأثري لجائزة نوبل ؟

فأجاب :

« جائزة نوبل ، جائزة وضعها صاحبها ليكفّر عن ذنب عظيم اجترحه بحق الانسانية ، فخصص مبلغا من المـال يصرف (رباه الحرام) لمن يرشحون لها من الغربيين ، ولم تعط على المدى الطويل الا لشرقي واحد ، وهو عالم في فنه ولا ريب . وإنما خص بها سياسة وذرّاً للرماد في العيون .. وهـل تظن أن عـربيا وقف حيـاته عـلى خدمـة العروبـة والاسلام ، يرشحه القوم لنيل هذه الجائزة ؟ وماخطر هذه الجائزة ، بل ماقيمتها وهذه هي صفتها مبدأ وغاية ؟ » .

الفصل الرابع

فارس المجامع العلمية واللغوية

ثلاثة لهم ذكر وثناء في وثائق المجامع العلمية واللغوية العربية ، وهم من شيوخ العراق : الأثري ، والشبيبيّ (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥ ـ النجف) ، والكرملي (١٨٦٦ ـ ١٩٤٧ ـ وهو الأب أنستاس ماري الكرمليّ الذي ولد في بغداد من أب لبناني الأصل وأم بغدادية) .. وهؤلاء الشيوخ إضافة الى علمهم وحججهم العلمية ، كانوا قد أرخوا لهم أدواراً فنية في تاريخ هذه المجامع العلمية منذ زمن تأسيسها ، وكان (الأثري) أكثرهم (جدلا) ، و (نتاج علم ولغة) ، واوثقهم صلة باعضاء هذه المجامع ، حتّى جعل قادة اقطار هذه المجامع يمنحونه او يخلعون عليه لقب (الشيخ) و (الحجة) في علمه ، وينال منهم اوسمة عالية من المجد والتكريم ..

■ مجمع دمشق

وتضطلع هذه المجاميع بأعمال متشابهة أو متقـاربة ، تنصب كلها على إشاعة الثقافة العربية الأصيلة ، وتعزيز اللغة العربية ، وتيسيرها لمـواكبة الحيـاة العلمية المتـطورة . لكن الثابت أن (المجمع العلمي العربي بدمشق) هو أكثر هـذه المجامع انتاجا و (ثقلا) ، فقد جاوزت الكتب التأريخية واللغوية والعلمية والأدبية والفلسفية التي صدرت عنه (المئة عـدا) ومعظمها إن لم اقل كلها من الطراز الرفيع ، أما مجلتـه فقد بلغت (٦١ مجلدا ضخما) من القطع الكبير ، وان شئت قلت (٦١ كنزا) ، وتمتاز بالرصانة والأصالة وتنـوع البحوث .. ومرد هذا العطاء الثر الى التدقيق في اختيار أعضائه العاملين ، وتخيرهم ممن يجيدون العربية اجادة عاليـة الى جانب العلم الذي يشتهرون به .. والسبيل الى « عضويته العاملة » ليست بالميسرة ، ولا سيما إبّان نشأته الأولى ، ويروى أنه من لم يكن من (بابته) ـ أي طريقته في التعمق والتثبث ، على حـد تعبير مؤسسه العلامة محمد كرد علي .. يوصد باب المجمع بوجهه وان حصل من هنا وهناك على مختلف «الشهادات» !

وانتخب (الأثري) في هذا المجمع في سنة ١٩٣١ .. ولم يبلغ السن القانونية المشروطة للعضوية ، مبالغة من رئاسته

واعضائه في تقديره لإحلاله محل أستاذه العلامة محمود شكري الألوسي .. وقد نشر من يومه ذاك بل قبله بحوثا ، في مجلته ، غير قليلة في النقد اللغوي والأدب ورسائل علمية واشعارا نوادر للأولين .. وهذا نص كتاب رئيس المجمع العلامة محمد كرد علي الى (الأثري) :

حضرة الأستاذ الفاضل السيد محمد بهجة الأثري المحترم ـ بغداد

قرر المجمع العلمي العربي بدمشق في جلسته الأخيرة باجماع الآراء انتخابكم عضوا مؤازراً فيه بالنظر لما يعلمه عنكم من غزارة الفضل وسعة الاطلاع ، ولعنايتكم في خدمة اللغة العربية وآدابها . فاذا صادف ذلك منكم قبولا ، نرجو أن تتحفونا بمقال في موضوع تختارونه ، وبما نشرتموه من المؤلفات والآثار العلمية ، وكذلك كلمة في تاريخ حياتكم مع صورة من صوركم الشمسية لتضاف الى تراجم وصور اعضاء المجمع ، والسلام عليكم سيدي .

دمشق في ٥ آذار ١٩٣١

رئيس المجمع العلمي العربي

محمد كرد علي

ونشاطه العقلي الذي أبداه في مجمع دمشق ، أثار انتباه رئيس الجمهورية السورية الزعيم شكري القوتلي فمنحه (وسام الاستحقاق السوري) ، وفي ٢ نيسان ١٩٥٧ أقيم في دار المفوضية السورية ببغداد حفل لتكريمه وتسليمه الوسام ضم نخبة من العلماء والأدباء ، ووقف فيه حيدر مردم وزير سورية المفوض وألقى كلمة ، جاء فيها :

« انني أشعر ـ وأنا أقلده هذا الوسام ـ أنني أقدمه الى أخ عزيز ومواطن كريم ، وهو في بيته الثاني ، اذ نعتبر أنفسنا ـ نحن العرب ـ بالرغم من تعداد الأمصار والاقطار ، أمة واحدة ، تجمعنا اللغة والدم والأهداف والمثل العليا ، وليس لدسائس المستعمرين أن تفرق ماجمعه الله والطبيعة .. سادتي : ان سماحة (الأستاذ الأثري) ليس بحاجة الى مديح أو تعداد مزاياه وفضائله ، لأن إخوانه قد خبروا كل ذلك ، وعرفوا نبوغه ، ولكن لابد لي في هذه الكلمة الموجزة المتواضعة أن اقول : إن سماحته قد بذل جهودا مشكورة في سبيل نهضة اللغة العربية ، ونشر تعاليم الشريعة الاسلامية الصحيحة وفضائلها بين الناس ، وقد لمس إخوانه في دمشق مواهبه العظيمة ، وقدرت (الحكومة السورية) ما أسداه للمجمع العلمي العربي من خدمات جلى ، فمنحته هذا الوسام

الرفيع »! ثم قلد (الأثري) وسام الاستحقاق السوري ، ووقف (الأثري) يخطب الجمع بكلمة « وهي قطعة من النثر الجميل أعقبها بقصيدة رائعة » ، ضمنها احساساته وذكرياته وامتنانه للزعيم رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي !

■ مجمع القاهرة

وقد أنشىء هذا المجمع عام ١٩٣٦ على عهد الملك فؤاد ، وقد اختار لهذا المجمع أبرز علماء مصر والعرب ، ولفتة الى مجلته أو محاضر جلساته نرى هذا الجهد الفكري واللغوي الكبير الذي حققه هؤلاء العلماء النوابغ (الاعضاء) .. ومن بينهم (الأثري) الذي ضُمَّ الى هذا المجمع في سنة ١٩٤٨ (عضوا مراسلا) ، ثم صدر في سنة ١٩٦١ مرسوم جمهوري بتعيينه (عضوا عاملا) فيه ، وقد حضر مؤتمراته السنوية الا القليل منها لظروف قاهرة ، وشارك في دراساته وبحوثه ومصطلحاته في مختلف العلوم والفنون ، وقدم اليه بحوثا غير قليلة كان أولها في اول مؤتمر حضره في سنة ١٩٦٢ بحث (الآلة والاداة في ضوء عبقرية العربية ومطالب التمدن الحديث) ، وهذه صورة كتاب تعيينه في مجمع القاهرة (عضوا مراسلا) ؟

« حضرة العضو المحترم / الأستاذ محمد بهجة الأثري

يسرني أن أبلغكم قرار وزير المعارف بتعيينكم عضوا مراسلا لمجمع فؤاد الأول للغة العربية بناء على ترشيح المجمع اياكم لهذه العضوية .. واني حين أقدم لكم تهنئتي أعرب لكم عن أطيب تمنياتي أن يلقى المجمع من كريم مؤازرتكم مايحقق أغراضه .. وسيحرص المجمع على ابلاغكم تباعا مما لديه من الاعمال تيسيرا للمؤازرة المنشودة ، وتقبلوا أخلص التحية .

رئيس المجمع : أحمد لطفي السيد »

وهذه صورة تعيينه (عضواً عاملاً) في هذا المجمع ، الذي جعل اسمه (مجمع اللغة العربية) .. ثم نص القرار الجمهوري في ذلك :

الأستاذ محمد بهجة الأثري

يسرني أن أبلغكم صدور القرار الجمهوري رقم ٥٧ لسنة ١٩٦١ بتعيينكم عضوا عاملا لمجمع اللغة العربية بالجمهورية العربية المتحدة ، منتهزا هذه الفرصة لتهنئتكم بهذا التعيين الذي سيكون له أثره في المعاونة على تحقيق اغراض المجمع والنهوض بلغتنا العربية ..

الامين العام/أ . مدكور

وهذا نص قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة بشأن

اعضاء المجمع :

« رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة رقم ١١٤٤ لسنة ١٩٦٠ بانشاء مجمع اللغة العربية بالجمهورية العربية المتحدة قرر : المادة الأولى .. يعين عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية ممثلا للبلاد العربية ، كل من .. محمد بهجة الأثري (العراق) .. » .

جمال عبد الناصر

مع الخالدين

وهكذا ينتشر (الأثري) في (مصر) ، وينقل رسالة (المفكر العراقي) الى مجالسها الثقافية ، ولاسيما مجالس رواد النهضة في مصر ، وهكذا يوضع في الكتب ويؤرخ في الكتب ، بصفته خالدا في اللغة ، خالدا مع هؤلاء أو أولئك الخالدين العرب الذين أسسوا للتراث دورا سيذكر لهم بعد حين من الزمن ، وفي كتاب « مع الخالدين » يسجل (الدكتور ابراهيم مدكور) دور (الأثري) في تاريخ مصر المعاصر ، قائلا : « وفي عام ١٩٦١ حظي (مجمع اللغة العربية) بشيخ ثالث من كبار شيوخ (العراق) (ويعني الدكتور مدكور بالأول : الكرملي ، والثاني : الشبيبي) وهو الزميل الأستاذ محمد بهجة

الأثـري : الشاعـر والنّـاشر ، النّـاثـر والخـطيب ، اللغـوي والأديب ، المؤرخ والفقيه ، فأمدنـا بفيض من دقيق علمه ، وعميق بحثـه ، ولايزال يمـدنا في كـرم وسخاء ، نستشيـره فيشير ، ونسأله فيجيب ، ونكتب اليه فيرد بعد درس واحاطة . وأشهد أنه يعاوننا دون انقـطاع ، في المؤتمـر وقبله وبعده . يؤمن بأن (رسالة المجمع) رسالته ، ورسالة كل عربي يعتز بعروبته

المجمع العلمي العراقي

وأحدث (المجمع العلمي العراقي) في سنة ١٩٤٧ ليحل محل (لجنة التأليف والترجمة والنشر) و (الأثري) يومئذ عضو في هذه اللجنة ، فأنتخب في جملة الأعضاء العاملين المؤسسين ، وعددهم عشرة ، وفي سنة ١٩٤٩ انتخب نائبا ثانيا لرئيس المجمع ، ثم في سنة ١٩٥٥ نائبا أول له ، وأشرف على تحرير مجلة المجمع سبـع سنـوات ، وشارك في وضـع جميع المصـطلحات العلميـة والفنيـة والحضـارية التي انصـرف المجمـع الى الاشتغـال بهـا الى سنـة ١٩٦٣ .. وعند انشاء المجمع الموحد في نيسان ١٩٧٩ صدر مرسوم جمهوري بتعيينه عضوا عامـلا فيه ، وعـين (مقررا) للجنـة اللغة العربية وعضـوا في لجنة التـاريخ والحضـارة ، وعضوا في لجنـة المجلة ، وعضوا في المجموعة اللغوية ، وطفق يكتب البحوث النقدية

وينشرها في مجلته .. وانصافا للتاريخ إن العلامة (الأثري) هو القدوة بين هؤلاء الاعضاء في اللغة وعلم اللغة وعلم الاستدلال اللغوي ، وتقوم على كاهله أعباء التنقيح اللغوي وفحص المفردة العربية وارجاع الفروع الى الجذور الأصول ، وفخر لنا ولتراث العراق المعاصر أن يبقى الأثري (الى الآن) يواصل ذهنه اللغوي ، ويمارس (فك الألغاز في اللغة) ، وهو فخر للعرب أيضاً ، ان يديم هذا العلامة المتفاني المجتهد صلته بالمجامع العلمية ، وأن يصبح (المستشار) الذي لايضارع ..

ونترجم عضوية (الأثري) في هذا المجمع العلمي العراقي بالوثائق :

١ ـ الوثيقة الأولى :

« سعادة الأستاذ محمد بهجة الأثري المحترم .

يسرني بأن أخبركم بأن الاختيار قد وقع على حضرتكم لتكونوا (عضوا عاملا) في (المجمع العلمي العراقي) ، فيرجى الحضور في تمام الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء المصادف ١٩٤٧/١٢/٣١ لأجل اختيار بقية الأعضاء وفقاً لأحكام الفقرة (ب) من المادة الثامنة من نظام المجمع .

وزارة المعارف ـ لجنة الترجمة والتأليف والنشر »

٢ ـ الوثيقة الثانية :

« صاحب السعادة/ الأستاذ محمد بهجة الأثري .
لقد صدرت الارادة الملكية المرقمة (٣٥) لسنة ١٩٤٨ بالموافقة على انتخابكم عضوا في المجمع العلمي العراقي ..
وزير المعارف / توفيق وهبي »

٣ ـ الوثيقة الثالثة :

أصدرنا هذه الارادة الملكية/ بناء على ماعرضه وزير المعارف بالموافقة على انتخاب أعضاء (المجمع العلمي العراقي) من الذوات الآتية أسماؤهم :ـ

السيد توفيق وهبي
الدكتور محمد فاضل الجمالي
محمد رضا الشبيبي
السيد نصرة الفارسي
الدكتور هاشم الوتري
الدكتور متي عقراوي
منير القاضي
الدكتور شريف عسيران
الدكتور جواد علي
محمد بهجة الأثري
على وزير المعارف تنفيذ هذه الارادة .

كتب ببغداد في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر سنة ١٣٦٧ واليوم الرابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٨

عبد الاله

صالح جبر/رئيس الوزراء

توفيق وهبي/ وزير المعارف

في حرم المجمع

وطالما ناقشت (الأثري) في غرفته أو غرفة الدكتور جواد علي في حرم المجمع العلمي العراقي ، عن أثر هذا المجمع في الحياة الثقافية ، بالقياس الى مجمع القاهرة أو مجمع دمشق ، وبالقياس الى اكاديميات العلم في بعض دول العالم ، وكنت أقول له : أي ثقل علمي لهذا المجمع ، ومجلته لاتباع في سوق الكتب ، ومجلته تقتصر على جملة أسماء تدور فيها وتدور على مدى سنوات ، وكتبه لاتعرف بين كتب المكتبات ، ورجال علماء لم نجدهم بين أعضائه ؟ وكان (الأثري) يرد عليّ ، بل ينفي (هذا العقم) الذي يتسرب شيئا فشيئا في حياة المجمع ، ويقول : « لا .. انه دائب على نفاذ الخطة المرسومة له في قانونه ، وجلساته متصلة ، وهيئاته الثلاث : العربية والكردية والسريانية ، تواصل عقد الاجتماعات في لجانه العديدة ، وتجدّ وتجتهد ، ومطبعتاه دائبتان على طبع مجلاته الثلاث ، وما يعده

من كتب مؤلفة ، أو محققة ، أو مترجمة ..!

ومرة ، سألت الدكتور العلي عن (سبب اخفاق انتشار مجلة المجمع) في مجالس الأدباء والمثقفين ، فكان يلقي تبعة ذلك على (الدار الوطنية للنشر والتوزيع) . وهذه ليست كل الحقيقة ، فقبل أن تؤسس هذه الدار وقبل أن تباشر خطة التوزيع ، كانت المجلة تعاني كسادا من كساد ، وسببه ينحصر في هذه العقلية التي تريد المجلة أن تبقى من حصة (الأكاديميين) ، وانها لو شاعت بين جمهور القراء لفسدت غايتها العلمية ، انه تفكير النخبة التي ترى الثقافة « ملكا مشاعا » لفئة معينة من جمهور القراء ، وان هؤلاء القارئين يعدون بعدد أصابع أكف أعضاء المجمع (٤٠ × ١٠) فأين اذن رسالة المجمع فيما هي معلنة في نظامه او وثائقه التأسيسية ؟

وأنا أدرك أن (الأثري) له رأي في أعمال المجمع ، وفي مجلته ، أو في أساليب تطوير أعضائه ولجانه ، وأعرف أكثر من هذا أنه لو اتيحت له ساعة العمل لقلب الخطط . وأنشأ التغيير الذي يتوافق مع دور العراق الحضاري في الأمة لكنه يؤثر أن تكون له (في زمانه الأخير) دبلوماسية الشيوخ ، تراعي هذا وتغضُّ الطرف عن ذاك ، وهو طبع ليس طبع (الأثري) في

الاصلاح.. ولما قلت له: أريد من المجمع انتفاضة اقوى مما هو عليه الان ، قال بلغة التمني ، وهي عينها لغة الدبلوماسيين الشيوخ : « كل من سار على الدرب وصل ، والكمال غاية لاتدرك في يسر ، وكلنا يسعى اليه .. والعراق البناء القوي والمفكر المتابع ، قادر على التطوير ، والارتفاع الى الأعلى ، والأمور مرهونة بأوقاتها ، والمجمع جزء من كيانه ، وتقدمه رهن بتقدم الكل .. والمهم أن نسير على النهج اللاحب والواضح ، ونحسن النية ، ونصدق العمل ،وندأب ولا نكل .. حينئذ نجد مايظن بعيد المنال شيئا قد دنا منا وحققناه » .

المجمع الأردني - والأكاديمية المغربية

وفي عام ١٩٨٠ اختير (الأثري) عضوا مؤازرا في (مجمع اللغة العربية بالأردن) الناشىء ، وهو مجمع نشيط وتغلب على مجلته البحوث اللغوية والادبية مما يكتبه أعضاؤه وغير أعضائه أحيانا .

كما اختارته في الزمن نفسه (أكاديمية المملكة المغربية) في بدء تأسيسها عضوا مشاركا للكرسي الفرد الذي خصصته للعراق . وهذه الأكاديمية طراز خاص بين المجامع المذكورة .. اعضاؤها العاملون المحليون من علماء المغرب نحو من ثلاثين

عالما من خيرة العلماء .. وهي تضم اليهم أعضاء مشاركين بقدر هؤلاء عددا اختيروا له من العراق والسعودية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس ، ومن علماء الشرق والغرب : من الصين وامريكا وبريطانية وفرنسة وايطالية واليونان والاتحاد السوفيتي واسبانية ، ويعقد ندوتين في كل سنة في المركز (الرباط) تارة وفي (فاس) تارة أو في الدار البيضاء أو مراكش .. وتتناول بحوث هذه الندوات دراسات متعمقة في أهم قضايا العصر ومشكلات الحياة المتغيرة ، وتكتب باللغات الأربع : العربية والانكليزية والفرنسية والاسبانية تنشر في مجلته (الأكاديمية) وفي كتب خاصة بالندوات ، والى جانب هذا كله تعنى الاكاديمية بتحقيق التراث من كتب اللغة والأدب والتاريخ .. وكلها طراز رفيع .

وفي عام ١٩٦٠ اختاره الملك سعود عضواً استشاريا في « الجامعة الاسلامية » التي أنشأها في المدينة المنورة ، فأمدها بمشورته حضورا ومغيباً على امتداد ١٧ عاما الى أن بدل نظام الجامعة ، وكان بين أعضاء المجلس الأعلى الاستشاري مرموق الأثر ومسموع الرأي .

الأوسمة

وفي بيته اطلعني (الأثري) على جمهرة من « الأوسمة »

التي قلدها في صدره ملوك العرب ورؤساؤهم ، فأضافة الى الوسام السوري الذي أسلفت ذِكره ثمة أوسمة من :

١ ـ الحكومة اللبنانية سنة ١٩٤٧

٢ ـ وسام الرافدين من الحكومة العراقية في بداية الخمسينات .

٣ ـ من المملكة المغربية (على عهد الملك محمد الخامس) .

٤ ـ وسام الأكاديمية المغربية سنة ١٩٦٢ (على عهد الملك الحسن الثاني) .

٥ ـ وسام الملك فيصل ، في جملة حيازته على (جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي ـ ١٩٨٦) .. ولما قلد الأثري هذا الوسام ألقى قصيدة في الحفل الذي اقيم في هذه المناسبة ، هزّ فيها هذا الحفل ورواده . ومما قالته جريدة (الرياض) الصادرة يوم الاثنين ٢٩ جمادى الآخرة ـ ٢٠ آذار ١٩٨٦ تحت عنوان (لقطات من الاحتفال) :

١ ـ ألقى (الأثري) قصيدة صفق لها الحاضرون بحرارة .. واعجاب .

٢ ـ الشاعر الامير (عبد الله الفيصل) بقي منصتا باهتمام شديد لقصيدة (الأثري) وبعد ختامها صفق باعجاب :

٣ ـ الدكتور احمد زكي يماني وزير البترول والثروة المعدنية

كان أكثر الحاضرين من الضيوف تفاعلا مع قصيدة (الأثري) وكتب الدكتور جميل سعيد من الضيوف الذين شهدوا الاحتفال الى الدكتور نوري القيسي رسالة مؤرخة في ١٣ آذار ١٩٨٦ يذكر له أثر القصيدة في النـاس وفي نفسه : « كـانت قصيدة (الأستاذ الأثري) مثار اعجاب لنا وللناس هنا .. كنت في الحفلة أستمع اليه ، والى حديثه العاطفي الحار الذي زانه انشاده ، وزاد في روحه وتأثيره في نفوسنا أفاضته في الحديث عن (العراق) وامتداحه له بماضيه وحاضـره .. كنت أسمعه فيقلق بي مجلسي . ولا أملك الا أنْ أعـاود القيـام وأعـاود القعود » .

تجديد النحو

وفي هذه (المجامع العلمية واللغوية) كان (الأثري) يدعو الى ايقاظ جسد النحو الذي أماته التعصب في شروحاته ، ونبغ في دعوته ولاسيما في (مجمع القاهرة) ، وكان ينصت اليه نحاة مصريون كبار . لكن من اين بدأت جذور النحو في (الأثري) وما منجزاته في هذا الحقل ؟ لابد أن نرجع الى ماضيه حتى نتعرف هذا النحو الذي جدد فيه وابدع فيه نظرياته فقد بدأ يعايش (علم النحـو والصـرف) الى جـانب علوم العـربيـة والعلوم الاسلامية منذ أواخر العقد الثاني من عمـره بعد أن اجتـاز

المراحل الدراسية الأولى باللغة التركية ، ودرسه عـلى شيوخ أجلاء في متونه وفي أمهات كتبه . وحين توسط دراستـه أخذ يشرح بعض منظوماته الكبيرة (الفية ابن مالك) وانجز نحو نصفها ، ثم تركه ليفرغ لدراسة العلوم الأخرى وهي بحور . ومنذ بواكيره الأولى في دراسة النحـو اكتشف ان علم النحو والصرف سهل في متونه ، وصعب بل بغيض في منظوماته ، ووجده في المطولات الكبار (عدا كتاب سيبويه ومغنى اللبيب مثلا) عسيرا ومعقدا ، دخلته الفلسفة العلية والمنطق ، وكثرت فيه المصطلحات ، وتشعبت المذاهب وتخالفت الآراء ، فخرج عن وظيفته التي هي ضبط الاعراب وتعرف مواقع الألفاظ في التعبير ، وأصبح (غاية بذاته) يفنى العمـر دون بلوغها .. ورأيت (الأثري) يكبر جهد أئمة النحو وفلاسفته ، ويشيد بعبقرياتهم ، ولكن ما أسلفوه من ذلك انما يصلح مادة وغذاء للمتخصصين ومن يريدون التعمق في تعرف دقـائق العربيـة ويروقهم أن يعرفوا العلل والأسباب ، أما غير المتخصصين ، وهم جماهير الأمة ، فلا نزاع في أن هذا العلم على هذا النحو لايصلح لهم ، انما الذي يصلح لهم منه بحسب تجربة الأثري (هو تجريده من كل هذه الأثقال) أي العودة له الى وظيفته

الإعرابية من غير تعليلات وتقديرات ، والله لايسخط علينا اذا لم نعرف هذه الاثقال كما يقول شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء .

و(الأثري) لايريد في النحو مزيدا على ماقدم أسلافنا ، وانما الشيء الذي يطالب به ، أو يجب أن ينجز هو (تجديد طريقة تعليم النحو) على وفق مقتضيات الحاجة عند من يراد تعليمهم اياه ، وهو شأن اضطلعت به وزارات المعارف والمؤتمرات وبعض المجاميع العلمية ، ونظرت اليه من حيث هو وسيلة لغيره وليس غاية لذاته .. ويزيد (الأثري) على هذا الرأي أن ثمة أشياء قليلة في مؤلفات النحاة القدماء والمتأخرين يحسن أن يعاد فيها النظر ، وليس في هذا مطعن عليهم ، ولا على علم النحو الذي أبدعوه ، وقد كانوا هم أنفسهم يعالجون مباحثه معالجة اجتهاد ، وهذا باب واسع من حرية البحث عند علماء العرب .. ومن هذا المدخل ناقش (الأثري) بعض مسائل النحو ، لامتطاولا ولامدعيا ، ولكنه الرأي عرض له فأبداه وأعلن منه قضايا عدة في مؤتمرات (مجمع اللغة العربية) السنوية بمصر ، وناقش كما نوقش ، وأقرت له أشياء ، وخولف في آراء . وهذا ماتكشف عنه محاضر هذا المجمع ..

ومن هذه القضايا النحوية التي ابتكرها .. وهي جديدة :

القضية الأولى تتعلق بمطلب اسم الآلة واشتقاقه . وقد بحثه النحاة من زاوية اشتقاقية واحدة ، فقصروا الاشتقاق فيه على ثلاثة أوزان ليس غير .. وفي العربية أوزان أخر يمكن القياس عليها توسعة لهذا الباب ، وهو مطلب مهم من مطالب الصناعات في هذا العصر ، وقد دعا هذا المطلب (العلامة الأثري) أن يعيد النظر في باب اسم الآلة ، وأن يضيف اليه أوزانا جديدة قياسية من صميم كلام العرب ، فقرأ (لسان العرب) كله لاستخراج هذه الاوزان وقد بلغت ١٧ وزنا أو أكثر يمكن القياس عليها من غير حرج ، وكانت كلها متروكة .. وفي أحد مؤتمرات مجمع اللغة العربية بالقاهرة أُقرّ بحث (الأثري) بل (اكتشافه) وأخذ باربعة أوزان مما اقترح أُضيفت الى أوزان الآلة لتكون سبعة أوزان تشتق عليها أسماء جديدة . أما الاوزان الأخر ، فرأى المجمع ان يجري الاخذ بها بالتؤدة والتدرج !

البحث الثاني الذي قدمه (تحرير المشتقات من مزاعم الشذوذ) .. والبحث الثالث (نفي مزاعم البناء على التوهم في اللغة) .. والبحث الرابع (بحث شروط صوغ افعل التفضيل واختلاف النحاة فيها) .. وقد أحصى (الأثري) زهاء مئة مثال من كلام الفصحاء تناقض بعض هذه الشروط . وليس شيء من

هذه الدراسات التي اجتهـد فيها (الأثـري) بمنتقص لأقدار النحاة الأولين ، ذلك لأن اتساع اللغة العربية اتساعا لايحيط به إلا نبي كما يقول الامام محمد الشافعي ، من شأنه أن يفتح المجال للاجتهاد والاستنباط ، وهم قد اجتهدوا واستنبطوا ، و(الأثري) وجيله يجتهدون ويستنبطون ايضا ، وهكذا ينبغي أن تجتهد الأجيال في حركة البحث !

عبرة الميزان

وفي ثنـايا الجـدل المجهد ، في العقـل والعلوم ، أحرج (الأثري) بأسئلة هي من بـاب الدفع «السيكـولوجي » الذي يمتص تعب العقل . فمما قلت له : أيها الشيخ ، هـل تنطبق عليك صفة (العلامة المجتهد) فيما أبـدعت ، وفيما أنتجت حريتك ؟ قال : « لاعلم بغير نظر ونقد واجتهاد ، وليس بعالم من ينظر في علم غيره ولايكون له حظ من وزن هذا العلم وتقويمه بفكره المستقل المستخلص من بصيرته ومن قراءاته وممارساته وتجاربه الكثيرة الواعية ، أما السؤال عن انطباق هذه الصفة عليّ ، فالاجابة عنه تلتمس عند الدارسين ممن يتجردون للبحث ويزنون الأشياء بميزان العلم الصحيح و«موضوعيته» .

ويعني (الأثري) أنه اذا كان هناك بحث متجـرد فيه ،

فلابد أن يعترف باجتهاده !

مقاديره

ومما أظهرته مواهبه : أنه حلّق بأجنحة علوم العـربية أجمعها هذا شيء ثابت في (الأثري) . يعرفه هو ونحن نعرفه . لكن بعض من يجلس في مجالس الأدب له رأي مناقض ، يقول إن (الأثري) طرق عدة أبواب من العلم حتى ينال (الشهرة) ، وقلت له : حجتك في هذا ؟ فقال :

« أما أني طوفت في آفاق عديدة من العلم فصحيح ، وهو فضل من الله تعالى أفاضه عليَّ . وأما تعليل الباعث عليه بمثل هذا الزعم فخاطىء لايعدو كونه ناشئا من حالة نفسية غلبت على مزاج صاحبه وفكره ، فذهب يعلل الشيء كما يحلو له أن يقول ، وكأنه أوتي العلم بخفايا النفوس التي لايعلمها إلا « من يعلم خـائنة الأعـين وماتخفي الصـدور » وهو الله جـل وعلا وحده ، لايشركه فيه أحد من خلقه .. ومنـطق العقل السليم يفرض على من يريد أن يصيب كلامه موقع القبول من النفوس والعقول أن يحبس لسانه عن إصدار حكم عـلى أمرٍ مّـا بغير بينته .. وصاحب هذا الزعم ، عفا الله عني وعنه ، لايملك بينة على زعمه ولو رام أسباب السماء اليها بسلم . فأنا لاأعبأ بهذه «القالة» ، ومعي كل عاقل سليم الطوية ، ولاينالني منها شيء .



في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ ١٩٦٢

حسن حسني عبدالوهاب التونسي ، الأثري ، محمد رضا الشبيبي

وحسبي أنني أعرف قدر مافعلت وأفعل من خير متعدد الوجوه والموارد والمصادر طبعا لاتعمل فيه ، ونازعة الى العمل الطيب فطرة لاتكلف فيها .. والله تعالى واهب الآلاء ومفيضها على عباده . (وأمّا بنعمة ربك فحدِّثْ) .

تجار الكتب

وربما يظن العابرون في مجالس الأدب أن هذه الشهرة التي جاءت الى (الأثري) هي التي ستدفع اليه ربحا ماديا في كتبه ومقالاته ، وكتبه عشرات ، ومقالاته مئات . ولكنهم هل يدركون أن (الأثري) منذ نبغت فيه خاصية البحث والتأليف والكتابة كان لايفكر في ربح وفي مادة ، وكان هذا العلم فيه حظه من الانتفاع المادي أبخس الحظوظ ؟ انه بمرارة العالم يقول :

« كنت أريق نور عيني في سواد الليل في تحبير المقالات ، ثم أبتاع هذه الصحف التي تنشرها بأفلس معدودة ، ويبخل أصحابها أن يوافوني بورقة مما ينشرونه ويتكسبون به من كدي وكد الكتاب الآخرين ! وكنت أؤلف الكتاب أو أحققه ويكون حظي من طابعه نسخة واحدة منه أو بضع نسخ أحيانا . وربحه كله له ، أستنكف أن أطالبه بحظّي منه . وكذلك كان الشأن مع تجار الكتب فيما يطبعون لي منها .. (حشف وسوء

كيلة !) .. وبـدأت المكافـآت على التـأليف من جـانب وزارة المعارف على قاعدة عدّ الكلمات ، فكانت تمنح المؤلف عن كل ألف كلمة ستة دنانير على ما أتـذكر للكتـاب الكبير .. وحـدد المجمـع العلمي الأول أعلى مبلغ بـ (٥٠٠) دينـار .. امـا الشطار من تجار الكتب في كل قطر عربي ، فيسرقـون جهود المؤلفين جهرة من غير خـوف ولاحياء من أحـد ، فقد أمنـوا العقوبة ، ولم يجدوا الرادع الذي يردعهم من جرائم السَّرق ، وكم صعلوك مدقع صـار بسرقـاته جهـود العلماء من كبـار المثرين . وقد سـرق بعض هؤلاء جهـودي في تحقيق « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » « وكتاب الضرائر فيما يسوغ للشاعر دون الناثر « وأدب الكتاب » للوزير أبي بكر الصولي ، فأعادوا طبعها من غير استئذان ، وتاجروا بها ، وضنوا عليّ حتى بنسخة واحدة مما طبعوا . فتأمل وتأمل » لكن أي تأمل أيها الشيخ ؟ أغير الردع يرد هؤلاء السراق ؟ وسرقة العقل ابشع من سرقة المال ، أغير الردع ؟!

لكنك أيها الشيخ انت ضجيع التقوى ، فلا لوم على التجار ، وانت الزاهد .. اتذكر ماقـاله الشريف الرضي ، في أمس وفي غد ، في هؤلاء الأنقياء :

يـاليلةَ السفـح ! هــلا عـدت ثـانـيـةً
سـقـى زمـانـك هـطّالٌ مـن الدّيـمِ
مـاضٍ من العيش لو يُـفـدى بـذلتُ له
كـرائـم المـال من خـيـلٍ ومـن نَـعـمِ
لم أقضِ مـنـك لُبـانـات ظفـرت بهـا
فـهـل ليَ اليـوم الا زفـرةُ النَّـدمِ ؟
فـليـت عـهـدك اذْ لم يـبـق لي أبـدًا
لم يبق عـنـدي عقـابـيـلا من السَّـقمِ
ردّوا عـلي ليـالي التـي سـلفـت
لم أنـسـهـنَّ ومـابـالعـهـد مـن قَـدمِ

العراق في مؤتمر المستشرقين
الأستاذ الأثري يحتج على دعوة «اسرائيل»

« كانت قد وصلت الى وزارة المعارف ، والمجمع العلمي ، والأديب الكبير الأستاذ محمد بهجة الأثري ، ومديرية الآثار القديمة العامة ـ دعوات للاشتراك في مؤتمر المستشرقين الدولي الذي يعقد في يوم ٨ أيلول القادم (١٩٥١م) في استانبول .

وقد علمنا أن (الأستاذ الأثري) قد اعتذر عن حضور المؤتمر بالنظر لدعوة بعض المستشرقين اليهود اليه ، وسيوجه احتجاجا خطيا بهذا المآل الى سكرتارية المؤتمر » .

جريدة الزمان/ الجمعة ٢٢ حزيران ١٩٥١

نموذج مما كان يُكْتبُ في شأنه في الصحافة

« والأستاذ الأثري كاتب مجيد ، وأديب بارع ، وفوق ذلك فهو عالم ديني من الطبقة الراقية ، وهو كسائر البغداديين يجيد النكتة ، ويعرف كيف يوقعها خلال أحاديثه الجذابة .. وربما يبدو لمحدّثيه سهل الانقياد ، ميالاً الى الموافقة ، ولكنه مع ذلك شديد التمسك بآرائه في غير جلبة ولاتظاهر . وقلّ أن يحتدّ في مناقشة أو يرتفع له صوت في جدل . وهو يجاري محـدثه ويتواضع ، الا فيما يرى جرحاً لعزته ، فهنا تثور ثـائرتـه ، وينسى وداعته .... ولايتورط في الخيال ، بل يميل الى الأسلوب الواقعي أكثر من غيره من أدباء العراق ..» .

مجلة الميثاق ـ الجزء ٢٠ السنة الاولى

(٢٢ صفر ١٣٥٣هـ/ ٥ حزيران ١٩٣٤م)

الفصل الخامس

في عالم النقد وصراع الفكر

معركة الايمان :

لو جمعنا ما كـان يكتبه (الأثـري) من نقد ، ونقـد النقد ، في عشريناته الأدبية ، أو في ثلاثيناته ، لصار لنا سفر جليل .. في جدل النقد الأدبي والفكري والاخلاقي . ولما كتب أو تصدى لشعراء كبار أو مفكرين كبـار ، وناقش مقـولاتهم ونظرياتهم ، كان يريد أن يصحح المفاهيم والدعوات النظرية ، بوعي (المصلح الاجتماعي) ، لا بوعي الناقد الحرفي ، انما كان يبني نقده على منهج نقدي ، قائم على منهج في الاصلاح ، وكان (مبدئيا) في نقده . واذا نقد ، فانه سيفتح معـركة ، يـدخل فيهـا الخصوم والأصـدقاء ، ويجعلهم يتصـادمـون ويتناقضون ، وتلك نتائج هذا التصادم ، هي الثمرة الروحية التي تعني (الأثري)، وتلك هي التي تلبي غرائز (المصلح) مذ قام للمصلح تاريخ للنقد . وهذه المعركة التي يمهد لها في نقده، كانت في (الأثري) معركة موازين ، ليس فيها إلا قوة العقل حينما يكون لهذا العقل عامل الاثبات والحجج الصادقة ، وقوة القلب حينما يتنزه هذا القلب من الضغائن والأحقـاد وآفات الذات القاتلة ، معركة تدار بأدب (الأثري) الرفيع ، بلسان لا يخدش لسانا آخر ، وبموجة من العواطف لا تورث احساسا بالدونية الآدمية ، وبعين بصيرة هي كما قلت : عين الموازين ، تعطي الحق أو تأخذه ، كما يـراد للحق ان يعطى بحق ، أو

كما يراد للحق أن يؤخذ بحق ، هو احساس رفيع ، كان العرب القدامى من نقادنا يسمونه (أدب المناظرة) ، يتقابل فيه اثنان على قدر الحجة ، وعلى قدر الابهة والعظمة والكبرياء ، ولذلك أنت ترى (الأثري) لا ينقد إلا أديبا بقدره ، ولا يشتبك إلا مع من صار اسمه تاريخا أو منهجا لجمهور ، أو جمهرة ، أو فئة من مجتمع القراء ...!

في مواجهة الرصافي

ومن هؤلاء الرواد الذين تصدى لهم (الأثري) الشاعر الكبير معروف الرصافي ، حيث عنفه بمقالة أو قصيدة أو حديث مجلس ، وحيث أثار عليه قوم المجالس الأدبية . لكن ما حقيقة قصة الصراع بين (الأثري) و (الرصافي) ، وكيف بدأت الفتنة بينهما ؟ قبل أن نعرض لهذا الصراع يجدر بنا أن نعود الى بداية العلاقة بينهما .

وأول صلة (الأثري) الأدبية بالشاعر (معروف الرصافي) نشأت عن طريق السماع ، مذ كان (الأثري) طالبا في (المدرسة السلطانية) ، آخر العهد العثماني ، اذ حفظ هو وطلاب السلطانية نشيداً من شعره كانوا يرتلونه كل صباح ، وما زال يتذكر منه قوله [ونصه الكامل في ديوانه] :

نحن خوّاضو غمار الموت كشّافو المحنْ

ما لنا غير اكتساءِ العز او لبس الكفنْ

إن نمت نحن فلتحيَ اوطاننا

وهو نشيد قومي ، قرر الحكم العثماني التركي انشاده في المدارس ، ثم حجب عنها أيام الاحتلال البريطاني ، واستمر هذا الحجب طَوالَ الحكم المقنّع .. وقد حاول (الأثري) أيام قيامه بتفتيش اللغة العربية الاختصاصي - بديوان وزارة المعارف - بعثه مرارا ، فلم يفلح .. من ذلك اليوم علق بذاكرته اسم صاحب هذا النشيد ، ثم ازداد معرفة به واعجابا بشعره حين وقع اليه ديوانه الأول الذي طبع في بيروت وقدم له الأديب الحاذق محيي الدين الخياط ، وحين علم أيضا أنه خريج أستاذه السيد محمود شكري الآلوسي الذي واتاه الحظ السعيد من بعد أن يسعد بالاقتباس من علمه وسَمْته في الصلاح .. ولما قدم (الرصافي) من غربته الى مسقط رأسه ، خف (الأثري) لزيارته فيمن خف اليه من المتأدبين ، وأقيم له حفل تكريم في فندق كارلتون ، وكان (الأثري) في أول عهده بقرض الشعر ، فنظم فيه قصيدة رائية على البحر البسيط ، ودعي الى انشادها مع المنشدين في هذا الحفل ، غير أن ما بلغه من جفوة أستاذه الآلوسي للرصافي - لأسباب لا موضع لها هاهنا - آثر العافية والاحتفاظ بعلاقته بأستاذه ، وألح المحتفلون عليه بتقديم القصيدة ، فلبى رغبتهم بشرط أن يلقيها واحد منهم بالنيابة عنه ، وأن يكتم اسمه عند انشادها ... وعلم (الرصافي) بالأمر ، فقدر شعوره نحوه ، وحرصه على علاقته

بـأستاذ الطرفـين ... ومعروف أن (الرصـافي) كـان يجلّ الآلوسي في قـرارة نفسه اجـلالا لا حدّ له كمـا ظهـر ذلك في استغفاره من تقصيره معه من قبل ، في مرثيتيه له ، ومما قال في أولاهما ، وقد جعل عنوانها (واشيخاه) :

إنـي أخـفّ لدى ذكـراك مـضـطربـاً
وإن حـمـلت مـن الأحـزان أثـقـالا
لأشكـرنّك يـا (شكري) مـدى عمري
وأبـكـيـنّـك أبـكـاراً وآصـالا
فـأنـت أنت الذي لقّـنتـنـي حـكـمـاً
بـهـا اكتـسيـت من الآداب سـربـالا
اوجَـزْتَني مـن فنـون العـلم أدويـة
شـفت مـن الجـهـل داءً كـان قـتّـالا
فصـحّ عقـلي ، وقبـلاً كنت مشتكيـاً
من علّة الجـهـل أوجـاعـاً وأوجـالا
انـا المـقصّر عن نـعمـاك أشـكـرهـا
ولو مـلأت عـليـك الدهـر إعـوالا
فـاغـفـرْ عليـك سـلام الله مـا طلعت
شمسٌ ، ومـا ضاء بـدر الليـل أو لالا

وقد راق (الأثري) من (الرصافي) هذا الاعتـذار ، وهـذا الوفاء ، ومنـه استـدل عـلى صفـاء نفسـه ، ويقـول



في لقاء مع الوزير ثروة عكاشة بمصر سنة ١٩٦٨

(الأثري) : « والحق أن (الرصافي) كان مع عنجهيته سليم الطوية ، قلما يحقد على انسان ، إلا من خصلتين : أن ينال من شاعريته ، وأن ينال من دينه فيرمى بالكفر والزندقة . » . وفي ذلك قصص يعرفه جامعو شعره وبعض من ألمّ بالرصافي إلماماً بغداديا .. وفيما عدا هـذا وذاك ، كان سمحـا ، قد يغضب ويقاطع اذا نُوزع في أمر ما من القضايا الاجتماعية ، ثم يعود الى الصفاء كما حدث له مع (الأثري) حين أرسل في بعض شعره أحكاماً على بعض التقاليد والأحكام ..

متى حدث ذلك ..؟

حـدث ذلك لأول العـهـد في تـعـارف (الأثـري) و (الرصافي) أيام كانت تصدر باسم (الرصافي) جـريدة (الأمل) ، وكان القوّام الحقيقي بكتابـاتها ابـراهيم حلمي العمـر ، وقـد عـاشت ثـلاثـة أشهـر ثم احتجبت .. وكـان (الأثـري) الى هذا التـاريخ سلمـا مع (الرصـافي) يقدر شاعريته وبلاغة شعره .. واذا (الرصافي) يرسل في قضية الحجاب كلاما يراه (الأثري) مجافيا للحقيقة والصـواب ، اثار عليه ناسا ، ولكنهم لم يسلكوا معه سبيل الحوار ، فكفره بعضهم ، وشتمه بعض آخر .. ووقف منه (الأثري) الموقف الذي يستدعيه منطق المحاورة العلمية ، فكتب في المسألة مقالا مسهبا ، وناقشه فيه نقاشا معززا بأدلة كما تقتضيها المحاورة

العلمية ، وبعث به الى جريدة الاستقلال ، فرحبت به وقدرته ، فنشرته في موضع (الافتتاحية) .. فبادر (الرصافي) فنشر في اليوم الثاني في جريدته كلمة بدأها بما يشي بغضبه ، ولكنه لم ينس في سورة هذا الغضب أن يشيد بالأثـري ، ويذكـر (لحمة الأدب التي تجمع ... بينهما ..) وما يتـوقعه له من (مستقبل زاهر) ، ومما قاله في هذه الكلمة : « ان البحث في هذه القضية (الحجاب والسفور) قد أصبح مفروغا منه ، ولم يبق في قوس الجدال فيها منزع » . ولم يقتنع (الأثري) بهذا الرد ، ويعلق عليه بعد مضي هذه الحقبة ، بـأن (الرصافي) كان مرهف الحس ، وعاطفته أغلب عليه من عقله ، ولو تساويا عنده في القوة وتوازنا لكان رجلا آخر أكبر شأنا ومنزلة .. وكان في أحيان كثيرة ينطق عن الهوى : « ولذلك ندت منه شطحات جانبت السداد وحكمة العقل ... » ويـورد (الأثري) أمثلة عديدة في جدله مع (الرصـافي) .. فمرة نشر (الرصـافي) مقطوعة في قضية المرأة ، قال في مطلعها :

لم ارَ في الأقـوام مـن مـظلمـةْ
احـقُّ بـالرحمـة من مسلمـةْ
مـظلومـة حـتى بـمـيـراثـهـا
محجـوبـة حتى عن المكـرمـةْ

فتصدى له (الأثري) قائلا : « أصحيح هذا الذي يزعمه الرصافي من حال المرأة في التشريع الاسلامي ، وهو الذي كرمها وأعزها وأغلاها وأعلى شأنها ، وجعلها القهرمانة وعماد البيت والأسرة ، وصنو الرجل في الحقوق والواجبات ؟ » . وفي مكان آخر يقول (الأثري) : « والرصافي يعلم حق العلم أن السيدة والدته ، التي أقضّ فراقه لها مضجعه ، فأرسل اليها حنينه في بعض شعره الجميل ، أنها كانت تسعد من أبيه بكثير من التوقير والتبجيل ، كما كانت أمهاتنا وجميع نسائنا يلقين مثل ذلك من آبائنا في كل مكان وزمان ، وهن مرعيّات ومكفولات على خير وجوه الكفالة .. وكانت أمه من الصالحات كما ذكر لي أستاذه وأستاذي ، ولعلها هي التي ألهمته من كرامتها على زوجها أن يقول في شبابه قصيدته الخالدة :

هي الأخلاق تنبت كالنبات
اذا سقيت بماء المكرمات
تقوم اذا تعهّدها المربّي
على ساق الفضيلة مثمرات

فأين ظلت دعواه من هذه الحقيقة في التربية العربية الاسلامية ؟ إنه الهوى ! » .

ويذهب (الأثري) الى أن منطلقه الى نقد (الرصافي) لم يكن منـطلقا (شخصيـا) ، والرصـافي قـد بـلا ذلك من أخلاقه ، ودفاعه كان دفاع العقل ، فلا داعي للتقاطع والجفاء إن كان النقد نقد مبادئ ، وهنا يستشهد بقول أحمد شوقي :

في الرأي تـضـطغـن العـقـو
لُ وليس تـضـطغـن الصـدور

وغير ذلك من صور الاحتدام التي تركها لنا (الرصافي) و (الأثـري) في صحافـة ما بعـد عهد العثمـانيـين ، وهي مساجلات نستنبط منها لوحات نقدية عن اصطراع العقليات والبيئات الثقافية في حقبة بـدأ فيها العـراق يتنفس من كوى قريبة الى ذاته .. وكان حريا بمؤرخي (الرصافي) أن يظهروا أو يحللوا هذه اللوحات ، وان ينقلوها الى كتاب بمفرده يعالج الأثر الذي تركته هذه المساجلات على حياة المجتمع العراقي آنئذ .. وغير (الأثري) ثمة كتّاب اصطرعوا مع (الرصافي) وساجلوه ، في معتقداته الفكرية ، وفي آرائه الفنية ، وفي مكانته بين شعراء العربية ، وهذه (المطارحات) النقدية والانتقادية ذابت في أعمدة الصحافة ، فضاع علينا جوهرها الاجتماعي ، وضاعت علينا بـدايات نقـدية ، كـان من الممكن (لو جمعت وهذبت وحققت) أن تكون المقدمات الأساسية للنقـد الأدبي

الذي يبحث اليوم عن جذر له ، فلم يجده إلا في وادي التيه ، فأين ذلك الدارس (أو الناقد المجتهد) الذي يفتح ثغرة في الجدار المعتم ، فيجمع الكتب التي درست (الرصافي) في كل آفاقه ، ويقوم بنخلها ، وينقي فيها ، ويلتقط ما يدخل في (علم المساجلات) ، ويبدأ فيها نقدا مقارنا ، حتى يتبدى لنا ذلك التاريخ العقلي والأخلاقي الذي لازم مجتمعنا العراقي ؟ وهذه الكتب كثيرة ومعروفة .

* * *

وللأثري ، مع هذا .. ذكريات جميلة مع الشاعر معروف الرصافي ، قصّها عليَّ ، وهو يذكرها بشجن يلتاع قلبه ، شجن الشيوخ حينما يذكر بعضهم بعضا بدموع صافية ، يرون فيها ماضيهم العزيز .. وأولى هذه القصص بالذكر (حدث الضياع في بادية الشام) ، وهي قصة كلما تذكرها (الأثري) ذكر فضل (الله) ثم يد (الرصافي) على نفسه وعليه وعلى وفد النواب العراقيين العائدين من مصر في ربيع سنة ١٩٣٦ في انقاذهم من الهلاك المحقق في تلك البادية التي طالما ابتلعت القوافل وأودت بالتائهين قبل أن يعبّد بها الطريق السالك ....

وملخص هذه القصة .. « أنهم كانوا جميعا مدلجين في سيارة كبيرة في هذه البادية من دمشق الى بغداد ، وكان مجلس (الرصافي) قريبا من مجلس (الأثري) في مقدمة السيارة ،

وكان مجلسه فيها الى اليسار منها ، وكان الركب مهوّماً من طول الادلاج وجهده ، إلا واحداً لم تكد تغمض له عين ، يكثر التدخين ويتطلع الى النجوم في الفينة بعد الفينة .. ذلك هو (الرصافي) ، حتى اذا توسطوا الليل ، انطلقت منه للسائق صيحة عالية غاضبة : (قف لقد أهلكتنا) أفزعته وأفزعت الركب ، فأوقف السيارة من فوره ، وترجل الركب كله ينظرون ما الذي جرى ؟ فقال (الرصافي) : نحن تائهون في هذه البادية ! انظروا الى وجهة السيارة والى الجدي في السماء ، تعرفوا أننا لسنا سائرين نحو العراق ، وانما نحن ضاربون في طريق معاكس ، لا أدري الى أين يلقي بنا ! ثم استقل الركب السيارة ، وتولى (الرصافي) قيادة السائق ؛ فأمره أن يستدير بالسيارة ، فاستدار .. وما فتىء يحدوه ويأمره بالسير البطيء ، والركب كاظمون أنفسهم خوفا ورعبا ، حتى وقعوا - بعد لأي - على الجادة الرئيسة ، فتنفسوا الصعداء ، وحمدوا الله على النجاة ، وشكروا الله أن علّم (الرصافي) الاهتداء بالنجم اهتداء العرب في فيافي جزيرتهم العظمى !

في مجابهة الزهاوي

و (الأثري) في الحادية والعشرين من عمره كذلك ، وهو حديث عهد بالدراسات العربية .. نازل الشاعر (جميل صدقي الزهاوي) ، ونقد شعره ، وقد بدأت معرفته به لأول



الدكتور مدكور ، زكي المهندس ، الأثري .. القاهرة في الستينات

عهد الاحتلال البريطاني لبغداد ، وهو يافع ، رآه أول مرة في الدورة التعليمية التي استحدثت لتخريج معلمين للمدارس الابتدائية ، وقد دخلها (الأثري) مستمعا - لا طالبا للتوظف - وحضر درسا له ، فوجده (على ما تنقل روايته) يلقي على الطلاب مختارات من الشعر العربي بطريقته الخاصة من التفخيم والمط ورفع الصوت ، مع القهقهة أحيانا ورنو عينيه من وراء (النظارة) الى الطلاب وقتا ما إظهاراً لاستحسانه الشعر الذي يتلوه عليهم .. وقلما وجده (الأثري) فسر شيئا من غوامض ألفاظ هذا الشعر ومعانيه ، ثم حضر له درسا آخر ، وانصرف عنه ولم يعد اليه ، ولا يعرف سببا لذلك .. وسأل (الأثري) والده عنه ، فاختصر له حياته : بأنه من أسرة عراقية محترمة ، فيها رجال علم ودين ورجال أدب وشعر . ومن أبنائها من برزوا بالادارة ونالوا الدرجة الرفيعة في الدولة ، وأثنى على والد الزهاوي محمد فيضي أفندي الذي ولي إفتاءَ بغداد بعد شيخه الامام المفسر أبي الثناء محمود شهاب الدين الآلوسي ، كما أثنى على من عرف من أبنائه ، وذكر منهم صديقه صالح أفندي والد صديق الأثري (من بعد) « الشاعر ابراهيم أدهم الزهاوي » ، وهو تربه في السن ، وقد عرف عن هذا الشاعر تقديسه للحق ، ومن منطلقه هذا أخذ يفند كتاب عمه (جميل صدقي الزهاوي) (المجمل

مما أرى) في سلسلة مقالات نشرها في الصحف البغدادية أيام اخذ (الأثري) نفسه بالانتصار لأحمد شوقي ، وانتصب لتفنيد نقد الزهاوي لبعض شعره ..

* * *

ودام اللقاء والنقاش بين (الأثري) و (الزهاوي) بضع سنين ، ثم تصافيا بعد لأي ، وأهدى الزهاوي مجموعة دواوينه الى (الأثري) وصار (الأثري) يلقى (الزهاوي) دواما في المكتبة العربية لصاحبها نعمان الأعظمي ، وكانت ملتقى الشعراء والمتأدبين ، ثم في مجلس الدفتري أيام الجمعات .

وقد حدثني (الأثري) عن طبيعة (الزهاوي) بشيء من النقد قال :

وجدته حفيا بنفسه ومعتدا بها وبشعره وفلسفته ، يتحدث عنها في شبه حالة طفولية ، ويغمز في أثناء أحاديثه الشعراء الكبار ، كأنه يقول : أنا وحدي فارس الحلبة وسباقها ، وشاعر العصر ، وقريع أهل الأوان .. ويحب أن يذكر دائما ، فكان في كل يوم ينظم بيتين كيفما اتفقا له ، وتنشرهما له جريدة العراق في مكان عال من الصفحة الاولى .. على حين كان الرصافي على النقيض ، فان (الأثري) يروي عنه انه لم يعتد بنفسه في مجالس الأدب ، ولا يروي شيئا من شعره

في هذه المجالس ، وان لحظ ذلك في أشعاره وهو يفخر بنفسه وبشعره ، وذلك شيء طبيعي قلما سلم منه شاعر في زماننا ، ومنهم على وجه التخصيص أحمد شوقي وعبد المحسن الكاظمي ، وهما من عصر الرصافي :

ثلاثة مواقف

وللأثري ثلاثة مواقف أدبية نقدية خاضها مع الزهاوي ، الموقف الأول في سنة ١٩٢٣ ، والموقف الثاني في سنة ١٩٢٥ ، والموقف الثالث في سنة ١٩٢٧ .. أما الموقف الأول فخلاصته : أن اسماعيل صبري باشا الشاعر المصري توفي في آذار ١٩٢٣ وآلمت وفاته صديقه وصفيّه وعشيره أمير الشعراء أحمد شوقي ، فرثاه رثاء حارا في قصيدة فائية من الشعر العذب ، لمكان هذه الصحبة العامرة من نفسه ، فسارت القصيدة في البلاد العربية مسير الشمس ، ونشرتها الصحف العربية ، ومنها صحف العراق ، فاستبدت باعجاب الناس كعادتهم في الاعجاب بشعر هذا الشاعر العظيم في تلك الحقبة ، إلا الشاعر جميل صدقي الزهاوي .. كان في باطنه (على ما يروي الأثري) من المعجبين بها كذلك ولا ريب ، ولكن منافسته أبت عليه إلا ان يحاول اسقاطها من أعين الناس ، فنشر في جريدة العراق أربع مقالات في نقدها نقدا نحويا ولغويا بتوقيع

« ناقد » ، وسرعان ما اكتشف (الأثري) أن هذا (الناقد) هو الشاعر (الزهاوي) ، وأيد الواقع أنه هو لا غيره .. ثم قفى على ذلك ، فنشر باسمه الصريح قصيدة على وزن قصيدة احمد شوقي ورويها في رثاء اسماعيل صبري باشا هذا ، على سبيل المباراة ، يقول فيها (الأثري) : « انها دون قصيدة شوقي بمراحل ، وفي حسبانه أنه جلّى عليه وتقدمه ، ولن تكون النائحة المستأجرة كالثكلى ... » . ويؤيد (الأثـري) في هذا كثير من معاصريه .

وقرأ (الأثري) هذه المقالات الأربع ، فوجـد (العلم والانصاف قد جانبا كاتبها) ، وكان من المعجبين بروائع أحمد شوقي (والأثري يطرب لشوقي ويغرم بفنه وعندما يلقي مقطعا من شعـره أمامي يـأخذه سحـر ألفـاظه ومعـانيـه مـأخـذا عصبيا) ، وهو لهذا دفعه حب الحقيقة في شوقي الى أن يفند هذا النقد الذي كتبه الزهاوي ، دفاعا عن الشعـر الجميل ، وانتصافا لصاحبه من ظالمه والمفتئت عليه .. ودفع هذا النقد الى جريدة العراق نفسها ، فنشرته في سلسلة متتابعة أزعجت (الزهاوي) ، فاستنصر عـلى (الأثري) أحـد أصحابـه ، فـاندفـع هذا .. (ولم يـرغب الأثري في ذكـر اسمـه لأدبـه الجم ..) يكتب في صخب .. حتى زعم (هذا) في محاولة منه لهزيمة (الأثري) وخذلانه أن ما يكتبه انما هو من (إملاء)

أستاذه الآلوسي ، يقول الأثري : « ... فما زادني افتراؤه إلا ثقة بنفسي ، ومضيا في الكتابة ، وكان الزهاوي قد نشر فائيته الركيكة هذه ، فانكفأت عليها بالتحليل والنقد وأبلغت النكاية به . » فثقل الأمر على (الزهاوي) ، فتحامل على نفسه الى صاحب الجريدة بحجب هذه السلسلة عن القراء ، فرجا رزوق غنام من (الأثري) أن يرحم شيخوخة (الزهاوي) ، فيقف في نقده حيث انتهى .. فلم يجبه ، وخرج بالصمت عن (لا ونعم) ، وتابع الرد عليه في (العاصمة) من الصحف السياسية اليومية ، فوسعت صدرها لما يكتبه (الأثري) ، وطفقت تنشر له ما يكتبه فى مناقضة (الزهاوي) تحت عنوان (بين أديبين) قِطعاً قصاراً ... فاستشاط (الزهاوي) من هذا العنوان .. اذ كان في نحو السبعين من عمره وقد ذاع صيته ، فكيف يقارن بطالب ناشيء (وهو الأثري) في الحادية والعشرين من العمر .. وقد بلغت مقالات (الأثري) في جريدتي العراق والعاصمة نحو ٢٩ مقالة ، فيها نبرة الحماسة والكبرياء ، وفيها تنبأ (الأثري) بمستقبله ، وفيها مهد لأن يدخل الحلبة بجدارة اللقب !

الشعر المرسل

وأما الموقف الثاني الذي اشتبك فيه (الأثري) مع

(الزهـاوي) ، فهو نقـده اقتراح (الزهـاوي) (تجـريـد القصائد من التزام القافية) التي يعدهـا (الأثري) رنـين الايقاع في الفن الشعري ... وحجة (الزهاوي) في ذلك ، أن القـافية قيـد يكبل الشـاعـر عن الانـطلاق ، وكـانت حجـة (الأثري) تذهب في أن آلافا وآلافا من الشعراء العرب ملؤوا الدنيا منذ مئـات من السنين بـآلاف لا تحصى من القصائـد الطوال الرنانة التزموا فيها هذه القوافي التي هي رنين الايقاع الذي ينتهي عنده البيت الشعري ، وما قيدتهم عن الانطلاق ، ولا شكوا منه ضيقـا ولا حرجـا ، ثم حجة (الأثـري) أن (الزهاوي) نفسه عاش عمره ينـظم المقطوعـات والمطولات المقفـاة ، ولم يكن بهـا ضيّقـا ولا عـاجـزا .. وقـد أرفق (الزهاوي) اقتراحه هذا بقصيدة (مرسلة) ، وهي في رأي (الأثري) : « باردة ما لبث الزهاوي نفسه أن ارتد عنها ، شعورا منه بتفاهتها » .. ونشر هـذا النقد في صـدر صحيفة المفيد لصاحبها الكاتب السياسي ابراهيم حلمي العمـر ، وقد طلب من (الأثري) أن يبعث برأيه اليه في هذه المسألة ، فكتب اليه (الأثري) ، ومما كتبه قوله : « ان الشعر فن صعب ، لا يقوى عليه إلا من رزقوا الحس الشعري المرهف ، وملكوا آلته وأداته من اللغة الواسعة وملكة البيان ... وهو ككل الفنون له ضوابط تحكمه ، منها القافية التي يـراد التخلص منها ،

وهذه القيود أو الضوابط التي ميزت هذا الضرب من الكلام المتميز ، والتي لا يقوى عليها الضعفاء في حبك الشعر ، هي اربعة أركان لا بـد من توافـرها في وقت معـا ، وهي : اللغة السليمة الصافية ، والمعنى الكريم في الخيال الرفيع ، والوزن الذي هو ايقاع نفسي داخلي يتنوع بتنوع الاحساس ، والقافية التي هي رنين هذا الايقاع الذي ينتهي بانتهـاء البيت ، أما اللفظ فهو جسم روحه المعنى ، وارتباطه بـه كارتبـاط الروح بالجسم ، فاذا اعتور أحدهما أقل اختلال ، اختلا كلاهما ، وخرا صريعين ، وأما الوزن فهو أعظم أركان الشعر ، وهـو يستدعي القافية ويجلبها ضرورة ، وليست القافية بالجـالبة للمعنى ، ولا المعنى بتابع للقافية كما يتوهم . فاذا عري الكلام من أحد هذه الأركان المتلازمة ، فلا يعد من الشعر ، ولا يكون له أقل وقع في النفوس ، وان كابر المكابرون ، وركبوا رؤوسهم في الممـاراة ... » الى آخر مـا قرر ونشر له من كـلام في هذا الشـأن . لكن هل سكت (الزهـاوي) عن هـذا الذي كتبـه (الأثري) ، وهل انقطع عن كتابة (الشعر المرسل) ؟ يقول (الأثري) : « ولم يثنّ (الزهاوي) على واحدته التي قدمها نموذجا خديجا ، وسكت الى أن مات . . » !

وطلبت من (الأثري) أن يروي لنا حادثا من التاريخ البعيد يشبه حادث الزهاوي ، فقال ضاحكا : ثمة حادث وقع في

المئة الثانية الهجرية للشاعر المشهور دعبل الخزاعي ، فقد كان له صديق يقول شعراً فاسداً مرذولا ، وكان دعبل ينهاه عنه اذا أنشده . فأنشده يوماً :

إن ذا الحبّ شديدٌ
ليس ينجيه (الفرارُ)
ونجا من كان لا يعـ
ـشق من ذلّ (المخازي)

فقال له دعبل : « هذا لا يجوز عقلا ! لأن البيت الأول على الراء ، والبيت الثاني على (الزاي) » . فقال له صاحبه : « لا تنقّطه » . فقال له دعبل : « فالأول مرفوع ، والثاني مخفوض » ! فقال : « أنا أقول له : لا تنقّطه ، وهو يقول شكّله ... » !

ويريد (الأثري) بهذا الحادث من التاريخ أن يقول : فما أشبه الليلة بالبارحة ! ما أشبه عمل الزهاوي (في الشعر المرسل) ، بعمل صاحب دعبل الخزاعي الذي (تشاعر) فأرسل شعره على هواه ، لكنني أرى « وليس دفاعا عن الزهاوي » أن (الزهاوي) أو غيره من جيله او من أجيال ماضية او اجيال آتية لهم الحق في ابتكار ما يرون من انماط شكلية شعرية تنسجم وأذواقهم وقوانينهم المرحلية ، فان

نجحوا، فهو خير لتجربة الشعر العربي ، وان أخفقوا فهو من تجربة .. المهم أن يبقى الشعراء يدافعون عن حرياتهم الابداعية في أي لون يتشربون ، وفي أي سياق يكتبون ، فالشعر جزء من الحرية ، بل هو حرية الشاعر أجمع !

سعد زغلول

وحدث موقف ثالث بين (الأثري) و(الزهاوي) في سنة ١٩٢٧ .. حول مرثية الزهاوي للزعيم السياسي المصري المشهور سعد زغلول .. وهي من ١٤ مقطوعة ، في كل مقطوعة سبعة أبيات على قافية غير قافية أخواتها ، كان الزهاوي أنشدها في حفل التأبين الذي أقيم له ببغداد بعد أربعين يوما مرت على وفاته ، ونشرتها له بعض الصحف اليومية .. وقد وجد (الأثري) في هذه المرثية من عيوب الصناعة والفن ما يبتدىء بابتدائها ولا ينتهي إلا بانتهائها على حد قوله فيها ، فكتب في تحليلها مقالا ونشره في جريدة (العالم العربي) في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٤٦ هـ /٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٧ ... ومما قاله في تحليل هذه المرثية الذي أقام فيها الزهاوي وأقعده : « قال الزهاوي في مطلع مرثيته :

مات سعد ، فما عسى ان تقولا
فيه حتى تهز جمعاً حفيلا ؟

فقد نعى فيه سعدا الى الناس بعد أربعين يوما مضت على

وفاته . ولم يبق من لم يبلغه نعيه ولو كان في مطلع الشمس او مغـربها ، اللهم إلا من كـان لا صلة له بهـذا العـالم ... ثم اضطرب وتحير ، لا يدري ماذا يقول فيه ، فـرضي لنفسه ان يصفها بالعجز والعي .. ثم ذكر في الشطر الثاني أن غايته من رثاء سعد هي ان يهز (الجمع الحفيل) الذي يحتفل بتأبينه ، لا أن يقـوم بـواجب الوطنيـة ، وهـذا كمـا تـرى في منتهى السخف ، وفيه من (البرودة) والفتور ما اربى بهما على بيت ابي العتاهية المضروب به المثل في (البرودة) .. وهو قوله :

مــات الخليفــة أيــهــا الثقــلان

« فكانني افطرت في رمضـان » !

وليته ، اذ وقع في هذه العيوب المعنوية ، سلم من عيب آخر فني ، يسمى (التصريع المعلق) فان البلغاء يستحسنون أن يكون كل مصراع في التصريع مستقلا بنفسه في فهم معناه غير محتاج الى صاحبه الذي يليه ، مع ذكر فاصلة بينهما دالة على انقطاعه عنه ، ويستقبحون أن يكون على صفة بيت الشيخ الزهاوي معلقا فيه المصراع الثاني بالأول ..

وهو بعد كل هذا معجب كل الاعجاب بهذا المطلع ، او بالاحرى بالنعي الذي في أوله (مات سعد) ، حتى لقد أعاده عـلى المسامـع سبع مـرات بلا انقـطاع ، كـأن النـاس صم لا يسمعون ، او كأنهم لم يبلغهم نعيه قبل اربعين يومـا من

إنشاده هذه (المنظومة) ، بل لقد عاد في المقطوعة الثانية فقال في أولها :

فُجعت مصر بـالزعيم الجليـلِ

بـأبي الشعب كلِّه (زغـلولِ)

وعاد في الثالثة فقال :

فـوجئت مصر بالنعيِّ ، فكـادت

ارضهـا من هول المصـاب تمـورُ

وفي الخامسة مرتين :

بـين سعـدٍ ومصر جـدَّ الفـراقُ

ليس هـذا الفـراق ممـا يـطاقُ

مـات سعد ولم يمت ذكـر سعـدٍ

فـهـو بـاقٍ له القـلوب رواقُ

وفي العاشرة :

استـراح الرئيس بعـد العـراكِ

بعـد ضـربٍ صعبٍ وطعنٍ دراكِ

فكأن الرجل أصبح (ناعية) ينعى الى الناس الأموات (بـالأجرة) .. وقـد سمع أن الشـاعـر في الجـاهليـة كـان (اعلانا) لقبيلته ، فأحب هو أن يكون (نـاعية) لأمـوات أمته !

وقال بعد ذلك البيت :

بالرئيس الهمام بالمنقذ الأكـــــبـر للشعب في الزمان الوبيـلِ

ثم ناقضه فقال :

مـا بلغت المـنى لمصر .. ولكـن

كنت تمشي عـلى سواء السبيـلِ

وكرره أيضا فقال :

انـت حـررت مصر إلّا قـليـلاً

آهِ لو تـمّ ذلك التـحـريـرُ !

ثم أعاده للمرة الثالثة فقال :

عـاقك المـوت ان تحقّق وعـدكْ

غـير نَـزْرٍ ، وكنت تبـذل جهـدكْ

فعلى هذا ان سعدا لم ينقذ مصر بعد ، بل لم يبلغ المنى لها .. فأي المعنيين أحق بالاعتبار في نظر (الناظم) ؟ وما وجه الاعجاب بهذا المعنى وإعادته ثلاث مرات ..؟ » الى آخر النقد الذي عرّى فيه (الأثري) (مرثية الزهاوي) ليس في شعر المرثية فحسب ، وانما في فكر الزهاوي في هذه المرثية ، سياسيا واجتماعيا أيضا .

* * *

وبينما كان (الأثري) (ينتقد) مـرثية الزهـاوي في مجالسه الأدبية وفي صحافة العشرينات ، أخذ يبشر بمـرثية أحمد شوقي في الزعيم سعد زغلول الذي أذاعها بعد سماعه نبأ

وفـاة هذا الزعيم وكـان يومئـذ يصـطاف في لبنـان ، وكـان (الأثري) يردد مطلع قصيدة أحمد شوقي أينما حل :

شيّعوا الشمس ومالوا بضحاها

فـانثنى الشرق عليهـا وبكـاهـا

ليـتـنـي في الركـب لمـا افـلت

(يوشعُ) همّت فنـادى فثناهـا

ويردد أيضا بيتا من أبيات مرثية شوقي الذي ـ هو في رايه ـ يزن ديوانا مشيرا الى عظمة سعد في مقارعته الاحتلال البريطاني لمصر العزيزة :

هـل علمتم بعـد (مـوسى) مـن يـدٍ

قـذفت في وجه (فـرعون) عصـاها ؟

ومن يقرأ تلك الصحافة يومئذ (قبل ستين عاما) يجد معـركة الادبـاء حـاميـة الوطيس ، فيمـا بينهم وفيمـا بـين أفكارهم ، معركة ترتقي الى مستوى تثبيت القيم النقدية ، في كل شيء من هذه القيم ، وفي كل شيء من هذه المبـادىء التي تحرض على الوعي الأخلاقي ، ولا ريب في أن (الأثري) كان عنـوانا كبيـرا في هذه المعـركة .. لا يبـالي بشيء من قانـون وضعي ، ولا يثأر ، ولا يبغض ناقده أو منقوده ، لكنني عجبت لماذا (يسكت) قلمه ولسانه في معارك الأدب (الحاضرة) ، معارك تدور في صحافة العرب وفي منابر العرب ، قال كما كان

يقول لي في الماضي :

ـ لم أفتر .. بل ليلي ونهاري ساهران ، وأنا فيهما مفكر وعامل .

* أقصد المعارك الثقافية من أجل تثبيت القيم الأدبية .

ـ أين المعارك ، فأعارك ..؟!

* مثلما كنت تحارب في شبابك ..؟

ـ الذين نازلتهم ـ ولا أقول حاربتهم ـ كانوا على جانب في القيم الأدبية والعلمية في نظر الناس ، وكان لي رأي فيهم .. هؤلاء كانوا شيئا مذكورا (مهما كان رأيي فيهم) .

* ينبغي أن تخوض معارك تجدد فيها (شبابك الثقافي) ..؟

ـ أي معارك ؟.. ومع من ؟

* معارك في تصحيح بعض المعادلات الثقافية في الوطن العربي ؟

ـ « أنا حملي ثقيل .. أولا حمل الصحة المتداعية .. ثانيا واجب الأسرة والحفدة ، ثالثا ، لي ارتباطات بخمسة مجامع علمية ولغوية ، كل منها يجب أن أواصله بقدر المستطاع ، وأن أسافر وأحاضر وأناقش ، وأن أدرس ما يقدم اليَّ من دراسات اللجان .. كل هذا كفاح وجهاد ... » . انه يكفي (الأثري) بحق بما رأيته في وضعه في البيت وعاينته جسدا وهما وزمانا أخيرا ، انه الصدق كما قال الرصافي :

تعـوّدت تصـريـحي بـكـلّ حقيقـة
وللمـرء مـن دنـيـاه مـا يـتـعـوّدُ
اذا رمت نصحاً جئت بالنصح واضحاً
ومـا كـان من شـأني الكـلام المعقّـدُ



الاثري والمرحوم الدكتور جواد علي والشاعر حميد سعيد ١٩٨٦

كتبت مجلة (روز اليوسف) المصرية سنة ١٩٣٦ تحت عنوان (في قلب واحد) حديثا عن وصول (الأثري) الى القاهرة .. ومما قالته :

« هذا هو العالم العراقي الجليل السيد محمد بهجة الأثري بك ، الذي وفد على مصر من أيام ليدرس فيها نظم المعاهد الدينية ونظم الجامعة المصرية .. ولقد كان مقدمه في مواكب الحفاوة التي استقبلت بها مصر زهرة العراق وطلائع شبابه كان مثيرا لطائفة من السوانح التي انتهت الينا حافلة بالكثرة من الأسئلة الرامية الى تعرف العراق في دينياته ، بعد أن تعرفنا عليه عن طريق شبابه في غير جانب واحد من جوانب ثقافاته ، وفي هذا ما دفع بنا الى المضي اليه ، وفي جعبتنا جيش من الأسئلة ، رجاء أن نستبدلها بجيش آخر من معرفة جديدة .. ولقد ظفرنا للقراء بما نريد .. » الخ ..

كتب العلامة الشيخ عبدالقادر المغربي أحد أركان النهضة العلمية والأدبية في بلاد الشام ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، في التعريف بكتاب (أعلام العراق) لمؤلفه الأثري سنة ١٩٢٤ يقول :

« وكنا في أثناء تصفحنا لهذا الكتاب ، نعجب لذكاء مؤلفه وحسن تصرفه في الثناء على أستاذه ، وكنا نرى علم استاذه وأخلاقه وطريقته في الاصلاح وشدة وطأته على الجامدين ، كل ذلك متجسما فيه ، ضاربا قبابه عليه . فما أشبههما بالشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ... فكما كان هذان كوكبي اصلاح في العصور المتوسطة ، كذلك كان الآلوسي وتلميذه الأثرى في هذه العصور المتأخرة . وان كان الدهر فجعنا بالاستاذ الشيخ ، فندعو الله أن يمتع المسلمين زمنا طويلا بالتلميذ الذي ما زال في ميعة الشباب ، وغضاضة الاهاب ، وهو مع كونه لم يزل ابن لبون قد شأى [سبق] المقرمين ، واستطاع أن يبز البزل المصاولين .. » .

الفصل السادس

مواقف خالدة

وينبع موقفه من مبدئيته ، وموقفه النقدي كان دائما صارما في أدب رفيع المروءة ، حتى اذا وقع له جدل بينه وبين أعمدة الأدب في الثلاثينات ، نراه يتألق في سماحة تدل على سراوة الخلق ، بمثل ما نعته الدارسون أو القريبون منه .. وكما قلت في فصول سابقة ، فان (الأثري) ناقد فيما يبحث ، وناقد فيما ينظر ، وفيما يرضي نزعته المتصوفة في دنياه ، ولهذا كانت حياته الأدبية والفكرية والفقهية والشعرية ، جبهة عريضة ، لا يسلم فيها إلا صاحب حق ، ولا يرتوي فيها إلا قلب عاشق عذبه السفر الطويل الى الحقيقة . ومن أجل هذه الحقيقة ، نبض قلمه ، ولا أظن أن هذا القلم سيخفت تأثيره في مدى معروض !

موقفه من الزيات

جاء الزيات الى العراق سنة ١٩٢٩ ليدرّس في دار المعلمين العالية ، وسرعان ما انتشر صوته وقلمه في صحافة العراق ، فكتب القصص المثيرة ونظم التعليقات التاريخية في مشاهير المؤرخين ، وعقد الصلات مع رواد اليقظة الفكرية ؛ طه الراوي ، والزهاوي ، والرصافي ، والبصير ، والشبيبي ، وجل هؤلاء كان يحترم الزيات ، لصناعته في الأسلوب البلاغي ، ولأهمية قلمه في حركة النهضة الثقافية في الوطن العربي .. وفي كانون الثاني ١٩٣٠ كتب قصة تحت عنوان

(مأساة الشاعر وضاح اليمن) ونشرها في جريدة البلاد ، كان لهذه القصة وقع وصدى في منتديات الأدب والتاريخ في بغداد ، وشغلت الأذهان ، وعلق عليها أساتذة وأكاديميون وباحثون ، وبعضهم تصدى لهذه القصة ، ففند فيها الحوادث ، بل نفوا هذا الشاعر (وضاحا) من الوجود ، وكان في مقدمتهم العلامة الأثري ..

والقصة تدور حول دعوى علاقة شاعر يماني اسمه وضاح اليمن اختلف النقاد في وجوده وعدم وجوده ، بزوج الخليفة الوليد بن عبدالملك الذي امتدت في زمنه حدود الدولة العربية الى بلاد الهند فتركستان فأطراف الصين ، وقتل الخليفة له حين بلغه نبأ ذلك .. وتزعم القصة أن زوج الخليفة كانت تعشق وضاحا ، وتجمعه بها على غفلة منه تطارحه الغزل ، ثم يطرفها الخليفة بجوهر نفيس يحمله اليها خادم له ومعه كلمة رقيقة .. فيمضي الخادم اليها ، فلم يجدها ، ثم يعلم أنها في بعض غرف القصر ، فيدخل عليه مفاجأة ، فتحس بخطاه دون الباب ، فتبادر الى إخفاء وضاح فتدخله في صندوق وتغلقه ، وحينئذ يدخل الخادم فيرى أواخر جسم وضاح تغيب تحت الغطاء ، فيؤدي الى الملكة الرسالة ويدفع اليها الجوهر ، ثم يستوهبها بلهجة الخبيث الماكر حجرا من هذا الجرهر ، فتمتعض منه ، فيتوارى .. فيرتد الى سيده الخليفة بجلية

الأمر ، فيأمر سيده به فتوجأ عنقه ، ثم يلبس نعليه ، ويدخل على زوجه فيجدها جالسة تمتشط في تلك الغرفة ، فيجلس على ذلك الصندوق ، وما يزال بها حتى يأخذه منها ، ثم يأمر أن تحفر بئر ، فيقذف الصندوق فيها ، وهو يقول : « انه بلغنا شيء : ان كان حقا فقد كفنّاك ودفنّا ذكرك وقطعنا أثرك الى آخر الدهر ، وان كان باطلا فقد دفنا الخشب ، وما أهون ذلك ! » .. وكان لقصة الزيات هذه ـ كما يقول (الدكتور محمد رجب بيومي) ـ بعد حين في (مجلة الثقافة المصرية) « رنين في بلاد الرافدين ، وكان الأستاذ الكبير (محمد بهجة الأثري) أحد الذين عارضوه ، فقد ابتدأ نقده باطراء رائع لبلاغة الزيات ، وثناء مستطاب على بيانه ، ثم عمد الى اللباب فاستكثر على مثل الزيات ان يصدق أراجيف (الشعوبيين) وناقش رواة الحادث مناقشة من يراهم موضع الاتهام .. ولكن أبلغ ما تهدّى اليه (الأثري) في نقده هو ما وفق اليه من دفاع منطقي محكم لا سبيل الى نقضه نقضا عقليا ..

وقد رد الزيات على (نقد الأثري) حين قال : « لعلك أخذت علي ما أخذت لأنك حسبتني كتبت ترجمة تاريخية ، او حررت حادثة واقعية ، ولم يدر في خلدي حين قصصت نبأ هذا الشاعر البائس إلا أن اصور الحياة البدوية والبيئة العربية في اقاصيص انتزعها من الأساطير أو مما يشبه الأساطير ، فأنا

في ، هذه القصة ، وفي ما نشرت من أمثالها ، قصصي لا مؤرخ ، وبين القصص والتاريخ رَحِمٌ جذّاء ، وعداوة مستحكمة ، لأن (التاريخ) يروي ولا يبتدع ، ويحقق ولا ينسق ، ويصدق ولا يمين . أما (القصة) فانها تختلق وتبالغ ، وتؤثر بالصور الكلامية الخلابة ، ثم ترتب الأحوال وتسوق الحوادث على حسب الخيال الممكن لا على حسب الأمر الواقع » .. ثم عقب (الأثري) بمقالة أخرى ، كلها كانت دفاعا عن آرائه ، دفاعا جرح فيه هؤلاء الرواة الذين نقل منهم الزيات ، وقال : « ان الحق الذي لا مرية فيه هو أن كثيرا مما نجده في (الأغاني) وأشباه الأغاني من كتب الرواية والنقل ، انما هو سمر وقصص مكذوب منتحل ، وليس مما يسوغ في دين العلم والنقد ان ينتزع من الأساطير المرقشة أقاصيص يراد منها تمثيل حال الامة الروحية والخلقية ، لأن الكذب الذي يوضع للهدم لا يمثل الواقع الذي يقرره العلم » .. وقد سكت الزيات فلم يعقب ، وتلك المساجلات التي دارت بين الأثري والزيات ، جمعت وطبعت في بغداد سنة ١٩٣٥ ، في كتاب ذاع صيته في أقطار العرب ، وأعجب العلامة محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق) بهذه الحجج العقلية التي حققها (الأثري) في هذا الكتاب ، فأنشأ كلمة طريفة في تقريظ الرد والثناء عليه ، وبعث به الى الزيات في القاهرة لينشره في مجلته

(الرسالة) ، فأغفله الزيات وأهمله ، فكبر ذلك على العلامة محمد كرد علي ، ووجد في صنعه هذا مجافاة لروح النقد والعلم ، فكان ذلك بداية التجافي بينهما ... ثم كتب كثيرون ينتصرون للأثري ويدافعون عن معركته ، وعلى الرغم من حدة اوار هذه المعركة ، ظلت العلاقات الروحية والفكرية تزدهر بين الأثري والزيات ، ولا سيما وقد أخذ الزيات ينشر للأثري قصائده في صدر مجلته (الرسالة)، ثم مماكان بعد من حوارهما في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، كل سنة حوارا ينم عن ألفة ومودة عميقة وتبادل في الأفكار كما روى لي عن ذلك أعضاء في ذلك المجمع !

طاغور

وفي الربع الأول من سنة ١٩٣١ قدم رابندرانات طاغور الشاعر الهندي بغداد من طريق الشرق ، بدعوة من الملك ... وقد أراد أن يحسن استقباله من خانقين على تخوم الشرق ، ويلتقيه وفد جليل من الأدباء ورجال التربية والصحفيين والمترجمين ، فاختير له الشاعر جميل صدقي الزهاوي ، والدكتور فاضل الجمالي ، والأثري ، وعبدالمسيح وزير (المترجم) بوزارة الدفاع ، وغيرهم ، وصحبهم المصور أرشاك ، وتعذر على (الأثري) الاعتذار ، فصحب القوم الى

خانقين ليلا بالقطار ، وأصبحوا في خانقين .. وقدم (طاغور) فاذا برجل طوال مسن ، له وجه برنزي ، لا يوحى الى ناظره معنى ، بلحية بيضاء خالصة البياض طويلة ، وقد اعتمر بـ (كلاو) ، وأسدل على جسمه جبة سوداء ، وله صوت خفيض ، وتلقاه الوفد باسم الملك مرحبا ومؤهلا ، فشكر الملك والوفد .. وجرى الحديث باللغة الانكليزية التي كان (الأثري) يحسنها قراءة وفهماً ، ولا أظنه يحسنها حديثا في الأمور الدقيقة ، وكان أقدرهم على التحدث بها الجمالي ووزير .. وقضى الوفد سحابة يومهم في ضيافة (القاضي) في أحاديث عامة ، الى ان حان موعد توجه القطار الى بغداد ، وفي القطار امتد الحديث بينهم الى السياسة - وكان العراق قد كبلت حريته بمعاهدة سنة ١٩٣٠ ، وفيها من القيود والجور على العراق ما فيها - فاذا بطاغور ، كما تفيد مذكرات الأثري - يفيض في التبشير بالمسالمة والموادعة ، كأنه جيء به الى (بغداد) لنشر هذه (الدعاية المغلفة) .. وعلى قدر موجبات اللياقة مع ضيف الملك ، وجه اليه (الأثري) كلاما مؤداه : ان (المسالمة) تختلف من حال الى حال ، فقد تكون في بعض الأحوال من موقع القوة والاقتدار والمماثلة ، وتقتضيها الحكمة والتدبير ، وقد تكون من عوامل العجز والقصور ، فتكون حينئذ خضوعا وخنوعا .. ولم يعجب (الأثري) فكر الشاعر



احمد رفعة ، احمد حسن الزيات ، الاثري ، توفيق حفناوي ، عزيز اباظة ..
في مصر العربية

الهندي ، إذ ادرك مغزى ما قاله له ، فابتسم طاغور ، واقر كلام الأثري (على ما ثبته لي الأثري) . وفي هذا التداخل ألهم (الأثري) قصيدة وجهها اليه ، غير أن صدر الاحتفال الرسمي لم يتسع لانشادها ، ونظم (الزهاوي) قصيدة صور فيها مثول طاغور في خياله عن يمينه تارة اذا استدار الى اليمين ، وعن شماله تارة اذا استدار الى الشمال .. وأنقل هنا نصين (لقصيدة الزهاوي وقصيدة الأثري) قيلا في زمن واحد وفي حادث واحد ، دون أن أعلق عليهما ، تاركا للقارىء ان يغوص في كليهما ، باحثا عن الأثر الوطني ، ومكتشفا بنفسه مكان هذا الأثر الوطني في أي من النصين .. ومن منهما كان نزيها !

وهذا نص قصيدة (الزهاوي) :

كنت (طاغور) ماثلا في خيالي
حيثما الْتَفِتْ اجدْك حيالي

عن يميني اذا نظرت يميني
وشمالي اذا نظرت شمالي

مثل نجم يهدي ابتساما جميلا
في دجى الليل من مكان عال

وانا باسط اليك يدي في
ضرع اليائس الكثير الملال

قـلت لي : إن أردت أن نـتـنـاجـى
فـادنُ مـنـي ، وفي الدنـوّ تـعـال
قـلت : لا أسـتـطيـع ذلك ، إنـي
مـن شكـوكـي أسـوخ في الأوحـال
قـلت : حـاول منـهـا بنفسك إفـلا
تـاً ، فـحـاولتـه ، فـبـان كـلالي
وضعت في جـيـدي الطبيـعـة أغـلا
لاً ، فـمـا حيـلتـي مـع الأغـلال ؟
مـا بـوسـعـي الدنـوّ إلّا اذا حـر
رتـنـي ، او خـفـفـت مـن اثـقـالي
ثـم لمـا تـصـرّم الليـل يـنـأى
وبـدا الصـبـح ابـيـضَ الأذيـال
يـقـظ النـاس من كـراهـا تـحـيـي
مـوكـب الشـمـس طالعـاً في جـلال
لم يـكـن مـا قـد بـانَ يـومـئـذ لي
غـير طيـف مـن الحـقـيـقـة خـال
وارى اليـوم بـالنـواظر مـا قـد
كـنـت قـبـلا رايـتـه في الخـيـال

واما قصيدة (الأثـري) التي استلهمهـا من حـال السياسة التي نكب بها (العراق) ومن مغزى حديث الشاعر

(طاغور) عن (المسالمة ـ والموادعة) ، فهي :

بسمت لبغدادٍ ، وبغداد ثاكلهْ
فلم ترَ إلّا ان تهشَّ مجاملهْ
وبغداد .. ثغرٌ صاغه الله باسماً
لكل أديبٍ حطّ فيها رواحلهْ
محلّة أجوادٍ ، على بعد عهدها
عن البدو تقري الضيف بالروح عاجلهْ
هواها العلى .. فالمس نوازيَ نبضها
تجدْ وثبات الدم فيهن جافلهْ
وغنِّ لها أغنيّة المجد ، تمتلكْ
هواها ، وذكرها الذوابل عاسلهْ
هنالك إن تفعل ، ترَ اليوم امّةً
اعزَّ من الأقدار جاشت مقاتلهْ
وما هي إلّا ان ترى الأمر سانحاً
وما هي إلّا ان تثور مصاولهْ
لها عزمة ، فيها أناةٌ ، ومن يكن
كذلك ، يصبرْ او يعزّ قبائلهْ
اذا ما اقشعرّ الدهر ، فارقبْ فعالها
واصغِ الى صوت القواضب قاصلهْ

الا .. لا يــرغــك القــول مــني اقــوله
وإن يــكُ ضــدّاً للذي جئــت حــامـلهْ
فــإنّــا عــلى حــالٍ اذا مــا دريــتــه
عــذرتَ ، ورمت العفو إذ كنت جــاهلهْ
وقــد يــدع الرايَ امــروٌ مــتــصــلّبٌ
وينصر رايــاً عــاش دهــراً منــاضــلهْ

من طباعه ..

وكان هذا النفس الرافض للمسالمة ، هو طبع من طباع (الأثري) .. الذين علّمه أن يرفض ، وزمانه وبيته واسرته ، وبيئتــه العقلية ، رفضــا عقليا صــافيا ، وبــدون عُقد ، لأن (المسالمة) لا تميل إلّا الى شر ، والشر خراب ، وهو لا يريد أن يخرب عقله المزوج بعاطفة الروح ، وكان ميدانه واسعا في هذا الرفض ، في المسجــد حين تهــان قيم الدين الحقيقيــة ، وفي الكتاب حينما يراد للكتاب أن يكــون دعوة الى العــدل والخير والتفــاؤل ، ثم في الواقع ، حينمــا يفرض هــذا الواقــع عــلى الانسان أن يكون تابعا ذليلا لأناس هم ليسوا أجدر منه عقلا وحكمة ودراية في فتح مغاليق التربية أو السياسة أو قــوانين المفردة الاجتماعية .. وكان رافضا منذ طفولته !

وقد قرأت ، في صحف العشرينات أو الثلاثينات وما بعد هذه الحقب ، أقوالا في رفضه ، لكل شيء يشوه تاريخا ، ولكل

شيء يلغي حقيقة ، على الرغم من أنه يدرك أن رفضه بثمن يدفعه من معاناته ، ومن عرقه ، ومن جهده الجسدي ، لكنه هذا هو (الأثري) ، لا يستقر إلا على قاعدة معاناته ، وعرف هذا منذ اقترنت أفكاره بمبادىء الوطن والضمير وأكثرية الجمهور .. ولعله هو بين قلة من معاصريه الذين عاشوا أيام العثمانيين ، كان يستحضر عقله في أخطر لحظات المواجهة والتحدي ، حتى لو كانت هذه المواجهة وهذا التحدي بينه وبين أعلى درجات الدولة في تلك العهود الماضية .. ففي عام ١٩٣٢ أقامت (جمعية الرائد) في بغداد مباراة خطابية في قاعة المحاضرات في المدرسة الثانوية المركزية ، لمناسبة انتهاء السنة الدراسية ، وحضر هذا الحفل نوري السعيد (رئيس الوزراء آنذاك) .. وكبار المسؤولين ، ونخبة من الأدباء والعلماء ، من بينهم جميل صدقي الزهاوي .. والعلامة الأثري ، وبعد تعاقب الخطباء على مسرح الخطابة ، نهض نوري السعيد فألقى كلمة في الحفل ضمنها آراءه وأفكاره في السياسة الخاصة (به) .. في أثناء عرضه لهذه السياسة (تحرش) بالعلامة الأثري ، تحرشا يقصد منه إثارته ، فثار ، وما انتهى نوري السعيد من إلقاء كلمته حتى قام الأثري يخطب في الحفل بهذا الصوت الجهوري الذي عرف به الأثري في محافل العشرينات ، فتحرش بأفكار رئيس الوزراء ، ولم يرد عليه نوري السعيد (وسألت (الأثري) عن الصلة التي تربطه بنوري السعيد

قال : هو يعرفني جيدا .. وعندما كان يسير في سيارته ويصادفني في الطريق يخرج يده من السيارة فيحييني ، كان ذلك منذ العشرينات) .. ويثبت هذا أن (الأثري) اكتسب الشهرة العلمية منذ ذلك الوقت ، فاحترمه المسؤولون الكبار ، ومالوا اليه بالتحية .

وفي اليوم الثاني الذي مرّ على الحفل الذي أقامته (جمعية الرائد) ، نشرت جريدة العراق لصاحبها رزوق غنام الكلمة التي قالها (نوري السعيد) ، ونشرت في سياقها الكلمة التي (ارتجلها الأثري) ، لكنها نشرتها بافساد وتشويه وتلخيص مبتسر ، فغضب (الأثري) وأرسل حقيقته الكاملة الى الجريدة ، فنشرت له (التعليق الكامل والحقيقي على خطاب نوري السعيد) ، ففاز (الأثري) بصوته الحر ، وقدرت له مقامه أوساط سياسية وطنية ومؤسسات أخلاقية من صميم المجتمع البغدادي ، ولأهمية هذه الوثيقة السياسية في الثلاثينات وما حوته من (الطبيعة الوطنية للأثري) انقل منها بعض ما جاء فيها . يقول في بداية رده : « ووجد (أي نوري السعيد) فيَّ المقارع القوي العارضة ، فانتحاني هنا بالخطاب ، ووضعني في محل المعارض معتذرا اليَّ على ملأ من الحاضرين ، إذ زعم أنه عبر عن راي لا أعتقده ، مع أنه ليس فيما قاله ما يؤخذ به ، ثم اندفع في الكلام حتى اذا شارف

النهاية انتحاني مرة ثانية بضـرب من تلك اللغة ليـرهف من لساني ويطلق من بياني ، حتى يتم له ما ابتغاه من المناظرة المصـطنعة لتجـديد أسلوب الخـطابة .. ذلك مـا أدركته من تعرضه لي دون غيري مرتين ، فلما فرغ من خطابه ، وجدتني في موقف لا بد لي فيه من القول ، وخشيت أن لا يحسن من بعض الحاضرين فهم ما عناه من انتحائي والتعرض لي دون غيري مما لم تسبق اليه عادة خطيب من الخطباء في هذا البلد . » .

ثم يتحدى (الأثري) (نوري السعيد) كما هو شأنه مع الساسة العراقيين في العصر الملكي ، قائلا : « إنني اشكر فخامة رئيس الوزراء على ما خصني به من العنايـة ، ولكنها عناية غامضة تأخذ منهـا المدارك عـلى قدر مـا تهيأت له من الفهم ، فأحب أن أبين لكم موقفي منها وما انا عليه في حقيقة الأمـر من الرغبة الشـديدة في الاصـلاح والبعد عن جمـود الجـامـدين النـاشيء من التعسف في فهم الدين .. لست في الموضع الذي قد يخيله اليكم كلام رئيس الوزراء ، انني أول ثائر في هذا البلد على كل فساد طارىء على الاجتماع أو الدين أو السياسة مهما كان حظ ذلك الفساد من الشدة أو الضعف ، وأياً كان مصدره ، لست أعرَف الهوادة في ذلك كما يعرفني كل من خبرني عن كثب واطلع على ظاهري ، أو أكتنه دخيلة أمري وما أنتويه .. » .. وفي فقرة يقول (الأثري) : « ان هيكل

المستقبل الجديد لا يقوم إلا بتحطيم هياكل هذه المفاسد التي تنتشر باسم الدين ، فاذا لم نحل بين الصفحة السوداء من ماضي التاريخ وبين هذا الحاضر الذي نريد بناءه على قواعد القوة والعلم والايمان ، فلا فلاح لنا من بعد ... » .. ولقد ظلت هذه المساجلة بين الأثري ونوري السعيد (متواصلة) في المجالس والمنتديات الثقافية الى أن حان الزمن الذي استطاع فيه نوري السعيد أن (يظفر) بخصمه في أعقاب حركة مايس الوطنية سنة ١٩٤١ ، فيلقي به في غياهب ثلاثة معتقلات ثلاث سنوات ، مع أحرار من الكتاب والأدباء الذين انتصروا للتيار القومي في حركة مايس ، ومات أثر (نوري السعيد) وبقي أثر (الأثري) خالدا !

محاضرة

والأثر الخالد في (الأثري) هو (لسانه) الذي يترجم عواطفه الروحية الى صيحات خالدة ، وربما هذه الصيحات توقد شرر النفوس ، فتجعل منها مادة للثورة الاجتماعية . هكذا كان (نوري السعيد) يخشى (الأثري) ، يخشى فيه هذه (الثورة الاجتماعية) ، أو هكذا كان (الانكليز) يعتقدون .. لكن هل أفاد نوري السعيد من أساليبه في اعتقال (الأثري) ؟ هل كانت السجون يوما تطفىء ألسنة الكتاب الأحرار ؟ لقد أجاب (الأثري) عن مثل هذه الأسئلة

(بنفسه) بعد انتهاء مدة محكومياته في أواسط الأربعينات ، فالسجن كان تجربة جـديدة (لشخصيتـه الروحية) فيهـا استمد أنبل مواقفه ، ومنها تعلم سحر الرأي الثابت والموقف الثابت والعقيدة الثابتة ، وأظنه كان في السجن يصقل تجاربه الروحية ، بل لعله كـان من ثلاثـة بين مئتـين ، يعلّم سجناء مـايس ، حرفـة الروح بالمنـطق والشعر والأدب النـابـع من المبادىء !

ويخرج من السجن ، واذا (الأثري) كله محاضرة في استمرار المواقف المبدئية ، بل زادها روحا وثابة في التحدي ، فأينما كان يحل ركبه ، نراه يحاضر في الوثبة الفكرية ، وايـاً كانت سمات محاضرته أو عنوانها ، فانه كان يمجد (حريـة التجديد) سواء كان يمجدها عـلى مسرح العـراق ، أو على مسرح المؤسسات الثقافية الأجنبية ، فهو واحد في (حـرية التجديد الفكري) مثلما حدث له في محاضرة حاضر بهـا في (الجامعة الأمريكية) ببيروت في سنة ١٩٥١ ..

وكان (الأثري) يمثـل العراق في هـذا المؤتمـر الذي عقدته الجامعة الامريكية تحت عنوان : (مؤتمـر الدراسات العـربية) وعنـوان محاضـرته : (الاتجـاهات الحـديثة في الاسلام) ، ضمن محاضرات أربع ، وكانت الأولى : (موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية) للدكتور أحمد زكي بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهـرة .. والثانيـة : (التشريع الاســلامي والمجتمع الحـديث) للدكتور صبحي المحمصـاني من كبـار الحقـوقيـين في بيـروت ، والثـالثـة : (المدرسة العربية : نشأتها وسيرها واتجاهها) لأحمد سامح الخـالدي من علماء التـربية العـرب في فلسـطين ... وتـدور محاضرة (الأثري) (وهي الرابعة) في الأفكار التي ظهرت في القرنين الأخيرين في بقاع العـالم الاسلامي من السـاحل الأطلسي الى أرخبيل الملايو والصين .. (وأدى ذلك بـأمانـة وحرية وصدق) كما جاء على لسان الصحافة العربية آنئذ .. التي أشادت بالأثري ممثل (مدرسة بغداد التراثية) . على الرغم مما أخذت عليه بعض الأقلام الصحفية ، من أن الأثري « جاء بأفكار متممة لما جاء به (جمال الدين الأفغاني) ، أيام السلطان عبدالحميد الثاني » .. وعند عودته الى بغداد أواخر مايس ١٩٥١ قوبل (الأثري) بالتحية من صحافة القـطر ، لما أبداه من تحـد في الموقف المبـدئي الذي أرادت الجامعـة الامريكية أن تشوهه وتضلله ، وتجعل موقفها هو السـائد في المؤتمر ..

وقد سأل محرر جريدة (الزمان) العراقية (العلاّمة الأثري) عما نسبته بعض الصحف اللبنانية اليه من قيامه في ذلك المـؤتمر بـالدعوة الى تـرويج المبـادىء التي دعـا اليهـا

(الأفغاني) ، وعن اتهام صحيفة أخرى له بالترويج لبعض الآراء الأخر ، فقال : « ان هـذا كان مثـار استغرابي ، لأن موضوعي كان موضوعا تاريخيا خالصا ، سجلت فيه الأفكار الاصلاحية والاتجـاهات الجـديدة في العـالم الاسلامي التي ظهرت في القرنين الأخيرين ، لم أجعل منه موضوعا للدعاية لأية فكرة ، وان كنت أبدو متحمسا للاصلاح والتجديد والانبعاث . وليس من طبيعة البحث في مؤتمر علمي بَحْت أن يكون ميدانا لِما أرادت بعض هـذه الصحف أن تنسبه الى أغـراض قصدت إثارتها على حسابي .. » .

وقد كان من شهود هذا المؤتمر من كتاب مصر وغيرها ، الكـاتب المشهور (أنـور الجنـدي) ، فـأشـار بمقـالة عن (الأثري) الى محـاضرته هذه ومبلغ صراحته فيها ، قـال : « هذا واحد من هـذه المجموعـة التي قاومت الغـزو الفكري والتغريب والشعوبية دون توقف في حملاتها الضارية على اللغة العربية والتاريخ الاسلامي والأدب العربي .. فاذا أردت أن أستحضره أمامي في كلمـات ، قلت : الرجل الشجـاع الذي دعته احدى الدوائر الأجنبية للكلام ، فلما ذهب الى هناك ، قال لهم كل شيء دون تهيب أو مجاملة ، وتركهم فاغري الأفواه ! هـذا مفتاح شخصيتـه : كلمة الحق يقـولهـا دون أن يخشى شيئا » .. وقد بدأ (أنور الجندي) حديثه تحت عنوان (لقاء

مع جيل الرواد) فكتب : « عـرفت (العلاّمـة محمد بهجـة الأثري) عن طريق الفكر قبـل أن القاه ، لفتني اليـه شعره وديباجته الرصينة وآثاره المنوعة ، فلما لقيته ، رايت سمتا من الرجال يذكرنا باولئك الأبرار المصلحين الذين سبقوا على طريق النهضة والتنوير واليقظة .. رجل طُوال مَهيب ، وصوت جهير ، ونفس سمحة كريمـة ، وقلب ينبض بالايمـان الصادق بحب الاسلام وفضل أمـة العرب عـلى الانسانيـة والفكر ، وروح شفاف ، تلك هي الصورة التي رأيتها للرجل القادم من بغداد ، والذي شارك في عشرات من المؤتمرات والجماعات والندوات التي زخر بها تاريخ الشرق والعرب في هذه السنوات الأربعين الأخيرة .... لقد عـرفت فكره ومنهجـه ، وقرأت له الكثـير ، وأحببت النبع الذي شرب منه ، ووجدت عنـده روح الشباب المتجددة ، والايمان الصادق ، هؤلاء الذين قرأنا لهم في أول الشبـاب ومـطالع الصبـا ، وحفلت بـآثـارهم (الفتـح) و (الزهراء) و (الرسالة) ، وتداولت أفكارهم مجامع اللغة في دمشق والقاهرة وبغداد ، واشتركوا في المؤتمـر الاسلامي العام ١٩٣١ في القدس ، هذا واحد من هذه المجموعة ..... وهو الى هذا الشاعـر الرقيق ، والنفس العذبـة ، الأنيق الملبس ، الحلو البادرة ، اذا جاء الى (القاهرة) ، أبرق بحجز غرفته في الفندق على (النيل) ، واذا سار تلفت حيث جمال الطبيعة ،

واذا تحدث كانت عباراته هي الخير والحب .. » .

وفي بيت (الأثري) ملفات على جانب وثائقي بديـع ، رأيت رسائل يرجع عهدها الى يوم كان شابا في العشرينات ، يكاتبه فيها علماء من دول الشرق يتجاوزونه بالعمر لجيلين ، يثنون عليه وعلى أدبه ، ويخاطبونـه بنفَس أجيالهم ، وكـأنه واحد منهم بلحمه ودمه ونضارة قَسَمـاته التـاريخية ، وكنت أقول له : لو حققت هذه الرسائل ، لدفعت الى المكتبة العراقية بأهم كتاب يؤرخ حقبة ، هي من أغنى حقب التاريخ الفكري العربي المعاصر ، لكن (الأثري) يؤثر أن تبقى هذه الرسائل الى أجيال أخرى ، ويؤثر أن يبقى (زاهدا) في شهرته ، ولم أوافقـه على ذلك ، لأن هـذه الرسائـل هي جزء من تـاريخنا الفكري ، فاذا كان مشغولا بأمراضـه ، أو مشغولا بمشاريعه اللغوية ، فعليه أن يقدمها الى المجمع العلمي العراقي ، أو الى احـدى مؤسسـات الوثائق ، ليقـوم المعنيـون بـدراستهـا ، بفحصها ، وبجعلها مصادر أولية لدراسة تاريخ العراق ، أي ، دراسة بدايات اليقظة الفكرية فيه ، بعد سبات طويل !

الأثري الخطاط

ومن بين الرسائل المرسلة اليه من علماء العربية ، قرأت رسالة أرسلها اليه عالم من الشام ، اعجب فيها بخط الأثري ، ـ وكان في العشرينات من عمره ـ إعجابا آثار رغبتي في معرفة

(هذه الموهبة) فيه ، موهبة نشأت فيه ، وتطورت فيه ، وصار القريبون اليه ، أو أعضاء المجامع العلمية العربية ، يدركون ان ملكة الخط في (الأثري) هي التراث بعينـه ، أو هي فن التراث بتقاليده وبأصوله ، وكان قدماء العرب يقدسون الكاتب والمقرىء والخطاط !

وكيف جوّد الخط ؟

وتجويد الخط من الفنون الجميلة ، مـردّه الى أمرين : الاستعداد الفطري المركز في الطبع جبلة ، والتخرج بأساتذته الموهوبين من أصحاب (الخطوط المنسوبة) أوما يشبهها ... والخط العربي في الشكل الذي أبدعه الخطاطان البغـداديان الماهران في العصر العباسي الزاهر ـ وهما : الوزير ابن مقلة ؛، وابن البواب ـ يقوم على مقاييس هندسية دقيقة ، ولا بد لمن يريد تجويد خطه أن يتلقى هذه المقاييس الهندسية عن هؤلاء الأسـاتـذة ، ليـطابق الوضـع الطبـع ، ويبلغ الخـط كمـاله وجماله .. وقد كانت العناية بالخـط العربي وتجـويده لعهـد (الأثري) أيام الصبا بالغة الغاية في الكتاتيب وفي المدارس الرشدية ، وكـان المعلمون في الكتـاتيب ، كما ينقـل لي جيل (الأثري) ـ يرسمون للأطفال صور الحروف والكلمات بالثلث والرقعي ، ويطلبون منهم محاكاتها بالكتابة في ألواح من الزنك بالحبر الأسود وأقلام القصب ، وعرضها عليهم المرة بعد المرة

للتصحيح والتعديل باستمـرار ، ليصبح إتقـان الخط ملكـة عندهم .. وكانت للخط في المدارس الابتـدائية حصـة مقررة كبقية الدروس ، يؤخذون بها على هذا النحو من العناية ، ولكن بالكتابة على (السبورة) في الصف ، ثم على نمـاذج خطيـة مطبوعة ، وقد كتب فيها الخط الثلث والرقعي بحسب المقاييس الهندسية ، يبتاعها الأطفـال ، ويجرون فيهـا خطوطهم عـلى مثالها ، ومثل هذه الحال في المدارس الرشدية العسكرية كانت فيها للخط حصة مقررة وبعناية أشد !

في جميع هذه المراحل الدراسية كان (الأثري) يلقى من المعلمين الاستحسان والتشجيع ، لكنه صدم في أول دروس الخط صدمة شديدة من المعلم في (الرشدية العسكريـة) ، يروي : « كان معلم الخط رجلا مسنًا من المدنيين بطربـوش أحمر على رأسه ، وجبة سابغة على بدنه ، وكان خطاطا قوي الخط وجميله ، كتب على السبورة السوداء المستطيلة سطرا ، وعلّمنا قواعد ما يرسم من أشكال الحروف والكلمات ، وطلب الينا أن نحاكي ما خطّ في صفحات عدة ، نعـرضها عليـه في الدرس الآتي ، وكنت يـومئذ في العـاشرة من العمـر ، فلمـا عرضت عليه في الأسبوع الثاني ما كتبت محاكيا خطه ، شك في أنني كاتبه ، فقال لي باللغة التركية : (كيم يازدي بوني ؟) أي (من كتب هـذا ؟) قلت له : (بَنْ يازدِم) ، أي (أنـا

كتبته) ، واذا هو يفجأني بلطمة ..! فكدت أُجنّ من الغيظ ، وبكيت ، وقلت له بعصبية : « شمدي بوندن دهـا يازه رم » « الآن أكتب خيرا من هذا » ، فعجب وقال : « ياز باقه لم » « اكتب لأنظر » ، وجلست على حاشية الدكـة العاليـة تحت كرسي المعلم ، فكتبت سطرا واحدا ، وقمت مسرعـا فأديتـه اليه ، فلما وقع بصره عليـه ، طيب خاطري أمـام الطلاب ، وبادر فمنحني (امتيازا) في فن الخط » ... وكانت المدارس في عهـد (الأثـري) تشجـع الطلاب المتميـزين ، فتمنحهـم (آفرين) ـ أي مرحى ، و (تحسين) ، ثم (امتياز) وهو أعلى مرتبة .. تكتب في بطاقـات بيض وحمر وخضر بحـروف مذهبة ، وتوزع على حائزيها كل خميس على ملأ من الطلبة وهم مجتمعون بصمت ، ويقف الضابط (ضابط الداخلية) بينهم وينـادي على الحـاصلين عـلى هـذه الشعـارات التشجيعيـة ليتسلموها من يده ، وغيرها من تقاليد جميلة !

وفي هذا المهرجان ، نشأ ميل (الأثري) الى الخـط ، وكان فيما مضى للخط شأن بين المتعلمين ، يتسابقون الى تعلمه واتقانه ، وكان ابنا عمة والد (الأثري) يجيدان هذا الخـط العربي الجميل ، ويحضر مجلسيهمـا في (الديوخـانة) من مشـاهير الخـطاطين عبدالغني آفنـدي وعلي صـابر ، فكـان (الأثـري) يعـرض عليهم خـطه ولا سيمـا خـطه الرقعي

فيستحسنونه ، ثم يمضي في هذا النوع من الخط على امتداد زمن الدراسة في العهد العثماني ، ثم لما شرع يدرس علوم العربية والعلوم الاسلامية ، وجد العلماء يكتبون خطا يسمونه (نستعليق) - نصف تعليق - ورغب في تعلمه ومحاكاته ، وأخذ اصوله من الملا علي بن درويش من فضلاء مدرسة عبدالوهاب النائب ، حتى اذا تهيأ له الانتماء الى محمود شكري الآلوسي ، وجده يكتب الثلث والنستعليق في « غاية من القوة والجمالية مع سرعة يده فيما يخط » كما يقول (الأثري) نفسه ..فأخذ في محاكاته وقاربه او كاد .. وخفي ذلك على العلامة السيد محمد رشيد رضا حين كان (الأثري) يكتب اليه ما يمليه السيد الآلوسي عليه من رسائل ، ونوه بذلك في كلمة نعيه الآلوسيَّ التي نشرها فيما بعد في مجلته (المنار) في رثائه (الآلوسيَّ) .

ودرج (الأثري) بعض زمن يخط النستعليق ويكثر فيه في رسائله ، ثم يتوقف ، فيعود يكتب الرقعي الذي نشأ عليه اول مرة ، إلا في الندرة عل سبيل التذكر لشيء أنس له زمنا ما ، وقد ضعف فيه ، كما ضعف خطه حين جانب الكتابة عند شيوع أقلام الحديد والحبر الكيميائي ، وانقطاع العهد بالحبر الطبيعي وأقلام القصب .. وقل : أيها (الأثري) انقطع الشباب !

* * *

قال : نعم .. شباب ذاهب ، لكن القلب نضر ، وترجم قوله شعرا :

صوّحت .. يا ورد الصبا ،
ودهيت .. يا لدةَ التصابي
وغدوتَ : ماؤك ناضبٌ ،
وفرندُ سحرك وهو خابِ
وظلال زهوك وهي ما
صحةٌ كناصلة الخضابِ
ابكيك ؟ ام ابكي حيا
تي ، والحياة الى انقضابِ
لا . بل شبابي في جَنا
ني ، وهو انضرُ من كعابِ
غضٌ .. كاوراق الاقا
ح ، ندٍ .. كريحان الشرابِ
انِق الرؤى ، الِق الهوى ،
زاهٍ .. كشعشاع السرابِ

دار الثورة للصحافة
جريدة الثورة
بغداد ـ ساحة

العراق

الاثنين ٧ صفر ١٣٥١ ـ ٦ حزيران ١٩٣٢

تعليقي على خطاب

فخامة رئيس الوزراء

في حفلة الوداع

— ❊ —

لماذا علقت على خطاب فخامة رئيس الوزراء في حفلة جمعية الوداع؟ وما هو الأسلوب الذي نحوته في خطابي؟

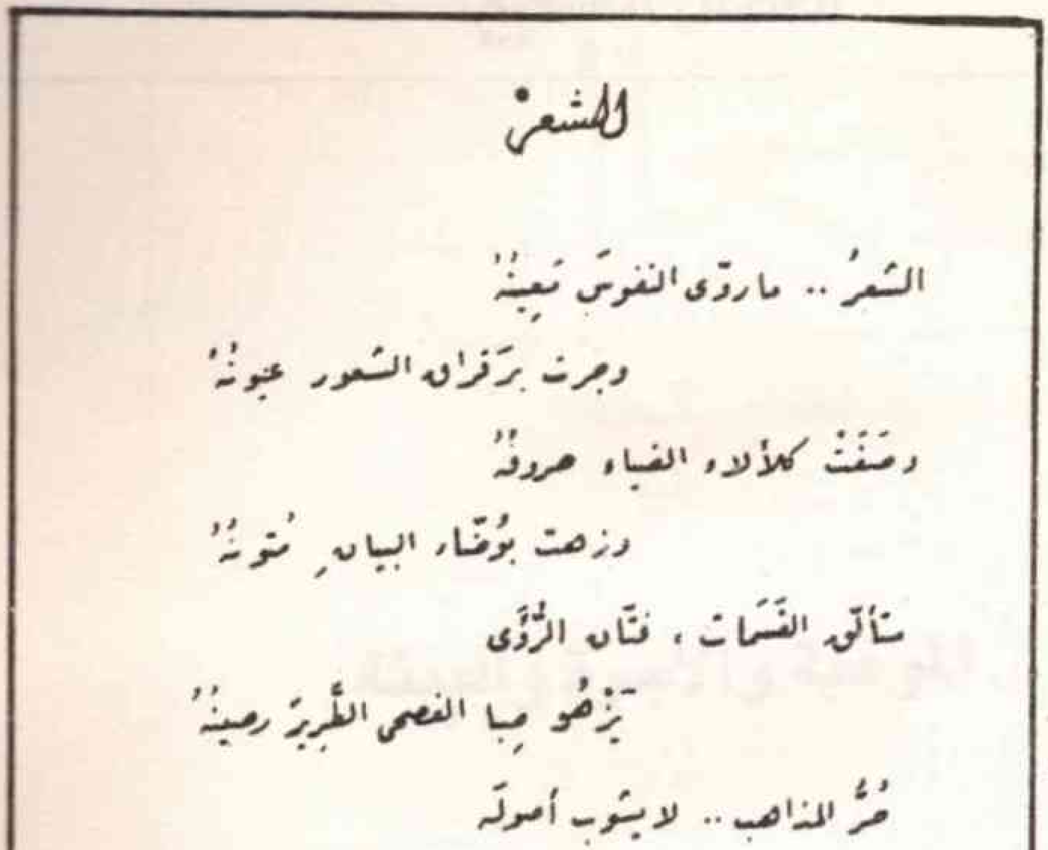
لقد امتدحت العراق الغراء (ع ٤ حزيران ١٩٣٢) في وصف الحفلة وفي نقل كلام الرئيس حتى اذا جاءت الكرة الى حتى سوء الظالم من جميع الاقطار واذا بخطابي وارد في غير مورده اذ أهمل ذكر الباعث الذي اقتضاني القول، واذا هو مقتضب اقتضابا افقده الحقيقة التي اردت بيانها في معرض التعليق الذي اضطرني اليه فخامة رئيس الوزراء.

ما كان الرئيس من خطباء الحفلة الرسميين ولا كنت انا منهم، وانما «العبرة» كلانا عامل «المجاورة» فنحن هو الى امام الشباب المتحمس حوعملوطرب الى حياة التعليم بعد ان أتلفته اوكار الكهولة وابعدتهم اعباء السياسة اذ ذكره الخطباء الشبان ـ وهم من جهة يفضون خلة وقوة وانتعاشا ـ يشعل الشبيبة الركب على بنالك نفسه واذا هو يتقدم على الشعر واذا وثبته جد حبيبة الى القلوب؟ واحب اليهم منهاسجالة الخطباء الشباب دفع ما عسى ان يتوهمه في بعض المستمعين من تعريض رئيس الوزراء، وقلت ولعل لا اعدو تشبيهاً نصه:

(الوقت قد حان، والنعاس قد استحوذ، فلست احاول ان اسهب في الخطاب ايها السادة.

اني اشكر فخامة رئيس الوزراء على ما تمسني به من العناية، ولكنها جاءت غامضة تأخذ منها المدارك على قدر ما تهيأت له من الفهم، فأحب ان ابين لكم موقفي منها وانا اناطب في حقيقة الامر من الرغبة الشديدة في الاصلاح والبعد عن جمود الجامدين الناشئ من التعسف في فهم الدين: لست في الموضع الذي قد يخيله اليكم كلام رئيس الوزراء. اني اول ثائر في هذا البلد على كل فساد طارئ على الاجتماع او الدين او السياسة مهما كان حظ ذلك الفساد من البشدة او الضعف واياً كان مصدره، لست اعرف المراوغة ولا التقية ولا التكتم في ذلك كما يعرفني كل من اختبرني من كثب واطلع على ظاهري او اكتنه دخيلة امري وما اشبه. انا حرب على كل من يستغل الدين ويعمل تحت

الأستاذ ...
ينتقد
نوري السعيد


الشعر

الشعرُ .. ما روّى النفوسَ مَعينُهُ
وجرت برقراقِ الشعورِ عيونُهُ
وصفت كلألاءِ الضياءِ حروفُهُ
وزهت بومضاتِ البيانِ متونُهُ
متألقُ القسماتِ، فتانُ الرؤى
يزهو بها الفصحى الطريرِ رصينُهُ
حرُّ المذاهبِ .. لا يشوبُ أصولَهُ
كدرٌ، ولا واهي اللغاتِ يشينُهُ
ابنُ الحقيقةِ، والحقيقةُ نهجُهُ،
والصدقُ في أدبِ الحياةِ خدينُهُ
العبقريةُ نبعُهُ، والبابليُّ ..
سرُّ دنِّهِ، وهوى المحبةِ دينُهُ
تجري على سَنَنِ الجلالِ خلالُهُ
وبرودُ أوضاعِ الجمالِ يقينُهُ

نموذج
من خطه
لاحدى قصائده

الفصل السابع

الموهبة والاسرة والبِيئة

كل هذا العلم الذي صدر عن وحدة العقل في (الأثري) ، وهذه العقيدة التي جمع فيها بين مبادىء الذات العاقلة والاجتهادات الحسية ، كل هذا المزيج الانساني ما كان ليكون لولا هذه الشخصية المشعة بالأثر ، وشخصيته : طفولته وشبابه .. وعندما نضج شبابه في الدرس والاجتهاد أخذ العلم كل مداه ، وصار بمقدور (الأثري) أن يتكلم بالاجتهاد .. والاجتياز والنفاذ .. وكان لا بد أن نتعرف أبعاد هذه الشخصية الأثرية ، ما دمنا قد تعرفنا أطوار علمها ، وأزمان انتصارها في العلم ، ففي هذه الشخصية يكمن صوت (الأثري) : العالم والمحقق ، المنشىء والبلاغي ...

اللقب

وهذه رواية في لقبه :

... وعندما فتح الشاب محمد بهجة كتابا في الفقه ، قرأ : انك اذا عجنت عجينا بماء ثم ظهر لك انه نجس فلك أن تطرح هذا العجين الى كلب ، أو تبيعه الى ... دهش الشاب ، وقال لأستاذه العلامة علي علاء الدين الآلوسي : أستاذي ما هذا القول ؟ ودهش مرة أخرى عندما قال له : ماذا تريد ؟ فأجابه : اريد دين رسول الله ، فقال له أستاذه : أنت أثري إذن » ؟ فسأله الشاب محمد بهجة : ما الأثري ؟ فقال له استاذه : « هو الذي يتبع آثار رسول الله » . فانتحل هذا اللقب ، وصار

جزءا من هويته.

أما ماذا يقول عنه النسب ؟ فهو محمد بهجة (الأثري) ، بن محمود ، بن الحاج عبدالقادر ، بن الحاج أحمد ، بن محمود .. أصلهم من ديار بكر بن وائل .. هاجر جد الأسرة الأعلى الى العراق على أثر خصومة مع والي البلد ، وحط رحله في مدينة إرْبل « اربيل الحالية » ... فاشتهر بنسبته اليها ، وضاقت هذه المدينة الصغيرة عن مطامحه ، فرحل الى بغداد ، واستقر في « الرصافة » قريبا من دجلة وسراي الولاية ، والمدرسة المستنصرية .

والده

ولد والده وترعرع في بيت من البيوت التجارية البغدادية في قلب (الرصافة) ، حيث يقوم سراي الحكومة ، وتنتشر المساجد والجوامع ، والخانات التجارية الكبيرة ، والمدرسة المستنصرية .. والجسر الذي قال فيه الشاعر العربي علي بن الجهم ..

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
اعدن لي الشوق القديم ولم اكن
سلوت ، ولكن زدن جمراً على جمرِ

وكان أبوه رجلا صالحا ، ورث من أبيه نوازع الخير ،

كما ورث منه ومن أجداده ما أثلوه ثمّ بجهدهم من عقار كثير في هذا الموضـع من بغداد حيث تكثـر الحركـة ويشتد النشـاط الاجتماعي ، لكن هذا العقار ذهب الكثير منه في الشارع عند توسيعه إبان الحرب العـالمية الأولى ، وهـو يمتد من شـارع الرشيد الى جسر الشهداء ، وكان يسمى « عقد الصخر » إذ كان هو وحده من طرق بغداد مفروشا بالصخر ، وسمي من بعد « شارع المأمون » ، وعلى جانبيه في منتصفه كان يقوم من عقار (أسرة الأثري) خانان تجاريان كبيـران ومقهى واثنا عشر مخزنا وحانوتا وثلاثة دور تسكنها الاسرة ، وبقيت منه بقايا اعتمد عليها (والد الأثري) في معاشه مع تعـاطيه التجـارة بالجياد الأصائل ، ولكن أقل من الاتساع الذي كـان لوالده وجـده مع الهنـد وغيرهـا ، وكان حـظه من الدرس أقل فلم يستغـرق في العلم النظري ، وغلبت عليـه الفروسيـة والعلم بأجناس الخيل وأنسابها وشِياتهـا ونعوتهـا .. ومنه اكتسب الابن (محمد بهجة الأثري) في صباه هاتين الخلتين ، وعلى خبرته هذه اعتمد رجال الجيش ببغداد إبان الحرب العـالمية الاولى في انتقـاء الخيـل النـافعـة للجيش .. وفي النـاحيـة الاجتمـاعية ، كـانت له صداقـات واسعة مـع خيار التجـار والأعيان والضباط والموظفين ، وكان (الأثري) يستمـع الى هؤلاء ويفيد من مجـالسهم ، ويحفظ طرائفهم ولطائفهم حتى عرفوه فتى نابها .. وقيل : هذا الابن سيكون شيئا ..

الكتاتيب

وولد الأثري ببغداد في منتصف سنة ١٩٠٢ ، وكان بكر أبويه، وكان حظه من حبهما كبيرا ، وأبوه يجل العلم والعلماء ، وما فاته من التوسع في اكتسابه ، حرص أشد الحرص أن يوفره لابنه ، ليكتسبه على أعلى حظ من مكتسبات الحياة ، فأسلمه صغيرا الى كتّاب في محلته على خطوات من داره ، كانت تقوم عليه سيدة من نساء المحلة ، فثقف منها التهجي للحروف العربية والخط ، ثم ضمه بعد لأي الى كُتّاب آخر في المحلة نفسها ، كان يعلم فيه معلمون أكثر حظا من المعرفة والقدرة على التوجيه والتسديد ، وكان الجهد فيه ينصب على تعليم الكتابة وإقراء القرآن وتجويده من الصباح الى الظهيرة لترسيخه في الذهن ، فما أكمل السادسة من عمره حتى فرغ منه ، وتأهب للدخول في المدرسة الابتدائية النظامية ، وهاهوذا الأثري تتداعى ذكرياته عندما ذكرته بيوم « الختمة » ، قال : « وقد خرجت من الكتّاب الى البيت في يومي ذاك في موكب من الأتراب ، أتقدمه مع « الخَلْفة » ـ وهو الذي يخلف المعلم ويعاونه ، وأنا في زينة من الثياب الجدد كجاري العادة ، وهم يرددون نشيد الحمد ويؤمنون عليه بعد كل مقطع ، وما برح مقطعه الأول يرنّ في ذهني حين أتذكره ، وهو

قولهم « الحمد لله الذي تحمّدا حمداً كثيراً ليس يحصى عددا » آمين ! وحين بلغ الموكب البيت ، تلقاه الأهل بالزغاريد ، ونثروا عليه « المسقول » او « المصقول » وهو حبّات سكّر محشـوّة لوزا ، وخلعت والدتي عـلى الخلفة خلعـة نفيسة من الثيـاب إكراما له وتقديرا لجهده وقيامه على تعليمي الخـط والكتابـة وختم القرآن الكريم وتجويده » .. وكان (الأثري) يومها في خاتمة السادسة من عمره !

نظام الكتاتيب

واختلف المؤرخون في نشأة نظام الكتـاتيب ، بعضـهم يرجعه الى العصر العباسي ، وبعض الى العهد العثماني ، إلا (الأثري) ، فهو استقصى تاريخ هذه الكتاتيب ، وخرج برأي منطقي يقول : إن أول ما نزل من الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو في جبل حِراء من جبال مكة يتحنَّث ـ هو سورة « إقرأ » : (بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ...) ، فمن هنا فـرضت « القراءة » على كل مسلم ومسلمة ، ولزم اقراء المؤمنين هذا الوحي كلمـا نزل ، ولزم تـدوينه وكتـابته ، ونشـط الرسول الكتابة ، وكان في مكة نفر قليل يكتبون فاتخذهم كتابه : يكتبون الوحي ، وكان في نساء مكة من تعرف الكتابة ، وسمى التاريخ منهن « الشفاء » فأمرها الرسول ان تعلم زوجه أم المؤمنين

« حفصة » الكتابة ، ولم يكن لهم يومئذ موضع يجتمعون فيه ويكتبون غير المسجد .. فالمسجد هو المباءة الأولى لتعلم القراءة والكتابة ، وحيث أنشىء مسجد مع انتشار الاسلام في جزيرة العرب ثم في ما وراء جزيرة العرب من بلاد دخلها الاسلام ، كانت تنشأ فيه حلقات التعليم ، وغلب لفظ الكتابة .. والاكتتاب ، وفي التنزيل العزيز : (ألم .. ذلك الكتاب لا ريب فيه) .. (اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلا) . أي : استكتبها ، وسمي المعلم الذي يعلم الكتابة « المكتِّب » بتضعيف التاء .. وكان الحجاج بن يوسف الثقفي في أول نشأته بمدينة « الطائف » (مكتِّبا) أي معلما يعلم الصبيان القراءة والكتابة ، وسمي الموضع الذي يعلم فيه الصبيان (كُتَّابا) ويجمع كتاتيب ، وكذلك « المكتب » وجمعه « المكاتب » .. وقد أطلق الأتراك العثمانيون « المَكْتَب » (بفتح فسكون ففتح) هذا على ما نسميه « المدرسة » موضع الدرس ، أخذا من هذا الاستعمال العربي القديم ..

ومال بنا الحديث الى طرق التدريس القديمة وكيف كان العرب يتدرجون في مدارس التعليم الأولى ، وشرح (الأثري) هذه النظم التعليمية في المساجد وفي البيوت الخاصة وفي مراكز العلم ، لكنني سألته : هل يقترح أن ترجع حياة الكتاتيب وبأية طريقة يراها ؟ قال : « أنا أقترح العناية البالغة بالمضمون

الذي اشتملت عليه الكتاتيب ، لا الصورة التي كانت عليها ، ولا الاسم الذي تسمى بـه .. أقترح أن يعلم أطفـالنا حسن الخط العربي ، فهو زينة المتعلم ومـظهر بـراعته في تصـوير المضمون وابرازه في وضوح تام من غير إخلال بحرف منه ، او نقطة ، او حركة ، فالكتابة قيد للأفكار يحفظها ولا يكون حفظ شيء بـالاخلال بصـورته ، وأقتـرح العنايـة البالغـة بإقـراء الصبيان منذ نعومة أظفـارهم القرآن الكـريم تجويـداً وأداء وحفظاً فهموا معنـاه في مطلع طفـولتهم أو لم يفهموه ، فهـو يطبعهم على الفصاحة ، ويرسم في أذهانهم وقلوبهم الأساليب البلاغية ، ويباعد بينهم وبين العامية وركاكة التعبير ، وتسمو بهم معانيه ومُثُله الكرائم رويدا رويدا كلما زادت قراءتهم له ، ونمت مـداركهم ، وتفتحت عقولهم لفهم فقـه الحياة ، وهـو أصفى ما يكون عليه من الخلوص والصفاء .. والى جانبه يعنى بصحـاح الأحاديث النبـوية الشـريفة .. وبـالشعر العـربي وبالحِكَم والأمثال ، ويكون ذلك معظم حصص التعليم لثلاثة اعوام في الأقل ، إن لم يكن كل حصصه :. » .

وقلت له : لماذا ؟ وأعطني رأيا من تجربتك في التعليم ؟

فقال : لتكوين ملكـة الفصاحـة العربيـة في النفوس ، ووصل النفوس بما يرتفع بها ويحررها من السفاسف ويغذيها بكرائم المعاني ، فتنطلق منها في تعاملها في الحيـاة في صفاء

نية ، وسلامة قلب ، وصدق عمل ، وحسن أخذ وعطاء .. وهذا ونحوه يحتاج الى المعلم والمعلمة ، ينشآن على أعلى درجات العلم الصحيح بالعربية التعليمية ـ لا العربية العلمية ـ والعـربية التعليمية تعني الاشتغال بتربية الملكات في النفوس ، لا شحنها بالفلسفات النحوية وما يحكمها من القال والقيل ، فان لذاك أهله ، وهم الكبـار الذين يـريـدون التخصص ، وهم قلّة في الأمة ، والمهم انما هو جمهور الأمة ..

الاستعداد الفطري

وكان (الأثري) ميسور الحال عندما كان في الكتاتيب ، وسـألته في زحـام مقولات علم النفس : هـل الطفولة للفقـير تستوعب العام قبل طفولة الأغنياء ؟ أي هل يخلق الفقر حالة « الذكاء » في الانسان الفقير أكثر مما هو في الغنى ؟ قال :

الأمر في جملته يتـوقف على الاستعـداد الفطري عنـد الطفل ، وعلى رغبته في التعلم ومدى إحساسه وتعلقه به تعلقا غير شعوري .. ومن أين للطفولة التي لا تتجاوز السادسة أو العاشرة أن تتصور « مكاسب العلم » فتجتهد لبلوغها والظفر بها ، ولتتخلص بذلك من فقرها اذا كانت فقيرة ، وتستوعب منه ما تستوعبه طفولة الأغنيـاء لهذا السبب ؟ ان هـذا التصور لا وجود له في أذهان الأطفـال ، وانما يكـون في أذهان كبـار السن، أو بعض كبار السن ممن يدركون فوائد مكاسب العلم ،

فيدفعون أطفالهم للتعلم ، وليس كل طفل له الاستعداد الفطري الذي يستوعب العلم ، وينبغ فيه قبل غيره ... وقد جعلتني مثالا للاستعداد الفطري للتعلم السريع ، وأنا من طبقة ميسورة ، ولم يكن ليُسْر والدي ، ولا لرغبته في أن أنبغ في العلم ، أثر ما في اندفاعي الى العلم ، وانما مرد ذلك الى فطرتي وما ركب في طبعي من التطلع الشديد الى المعرفة في أية صورة كانت ، وما زالت ملازمتي لا تنفك مني ، ولا أنفك منها في حال من الأحوال .. فهل كان ثَمَّ فقر دفعني الى الاستيعاب أكثر من غيري في طفولتي ؟

لكن (الأثري) لم يتوصل الى حقيقة الاستعداد الفطري ، وما عوامل تكونه ، وما جوهر الفطرة ؟

اخلاق القديم

ويتذكر الآن عوالم المحلة القديمة ، والنابهين في الكتاتيب وما كانوا عليه من الطبائع والنوازع والسلوك ، هي لحظات العشق التي تمر عليه الآن فتذكره بالأثر الذي تسرب الى أعماقه للأشخاص الكبار والعلماء الصلحاء والتجار الأثرياء ، وقد أتى عليهم الدهر فبادوا ، وما يزال تدور في ذهنه أشخاصهم وهيأتهم ووقارهم وسمتهم ، وكيف تعوّد من لقائهم احترام الكبار والاحتشام والأدب ، واكتسب الصورة التي

أحب أن يكون على مثلها اذا كبر ... وأدرك مثل ذلك في نسوة المحلة ، وقد كن كرجال بيوتهم في الحشمة والأدب والتوقّر ، ورأى بينهن الكبيرة التي ثقف منها التهجي والقراءة ، والشوابَّ اللواتي تعلمن وصرن معلمات في المدارس الابتدائية النظامية التي أنشأتها الدولة ، فأعجبه مخبرهن ومظهرهن ، وانغرس في نفسه احترام النسوة من هذا الطراز : حيث أنشد فيهن :

سلام على تلك الخلائق ، إنها
مسلّمة من كل عارٍ ومأثمِ

وكم تعلم في طفولته من مجالس كبار أهل المحلة في إصغائه الى أحاديثهم على قدر ما كان يعي منها ، وكان أحبَّ شيء الى نفسه منهم هذا الصفاء الذي كان يغمرهم بسكينته ، ويؤلف بينهم كما يؤلف بين أبنائهم وأبناء الآخرين !

طبع النفوس

ورأى (الأثري) أطفالا من الأثرياء .. وأطفالا من الفقراء ، عاش بينهم في محيط الكتاتيب وفي محيط المحلة ، ورأى طبائعهم ، وخبَر ما في هذه الطبائع ، وعرف بحسب ما يروي لي الدوافع التي جبلت عليها طبائع أبناء الأثرياء ، وطبائع الفقراء ، ولكني أوقفت سير روايته ، وقلت : هل

صحيح كما تذهب بعض نظريات علم الاجتماع .. أن الأطفال عندما ينشؤون فقراء يصبحون أشرارا ؟ قال : « اذا صح هذا الزعم ، لزم أن يكون شعبنا العربي كله من خليجه الى محيطه ، إلا القلة القليلة منه ، شعبا شريرا ـ قبل عصر النفط ، إذْ كان الفقر يكاد يكون شاملا ، وهو مع ذلك من أكثر الشعوب انطباعا على الخير وارتياداً له ، ونشراً له بين أنفسهم وبين الناس . نعم ، إن من المأثور من أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام « كاد الفقر أن يكون كفرا » . ولكن هل ينزغ شيطان هذا الكفر بكل فقير ويدفعه الى الشر ؟ قد يكون ذلك اذا صادف هذا الفقر نفسا هي في حاقِّ طبيعتها مجبولة على الشر ، والنفوس مجبولة على الخير وعلى الشر :

هي النفوس وان لم تبلغ الحلما
مجبولة الطبع إن لؤماً وإن كرما

ولكن ليس من شأن هذا بالضرورة أن يبعث كل انسان فقير الى الشر ، فكم في الفقراء من أخيار ، وكم في الأثرياء من أشرار ، وأقول : الأثرياء ، ولا أقول : الأغنياء ؛ لأن الغنى إنما هو غنى النفس ، وليس غنى المال ..!

فقراء عظماء

وحاول (الأثري) أن يسرد تاريخا هو أشبه بسجل

أولئك الفقراء العظماء الذين نشؤوا في خصاصة مدقعين في أمتنا ، وكانوا مع ذلك أخيارا جِدّ أخيار ، وعظماء نفوس أجلاء ، لكنني طلبت منه أن يختصر تاريخ هؤلاء باثنين ، أحدهما أدركه من التاريخ القديم على أن يحضر ذهنه دائما لروعته ، والآخر من الزمن الحديث رآه بنفسه وتحدث عنه المتحدثون ودوّنه المؤرخون .

فتحدث عن الأول ، وهو .. (الخليل بن أحمد الفراهيدي).. يقول (الأثري) متأثراً به : « هذا عبقري العرب ، إمام النحاة ، وواضع أول معجم لغوي في الاسلام .. ومبتكر علم أوزان الشعر .. لقد نشأ هذا الرجل العظيم بعلمه وعقله وأخلاقه مدقعا يقيم في خُصٍّ من أخصاص البصرة ، لا يقدر على فلسين ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال ، وكان يقول : « إني لأغلق عليَّ بابي فما يجاوزه همي » كما حكاه تلميذه النضر بن شميل ، ثم كان له راتب على (سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي) - والي الأحواز - فكتب اليه يستدعي حضوره ، وأنف هذا الفقير المدقع .. الغني النفس الذي يقيم في خص ، أن يسير اليه ، وكتب جوابه :

ابلغْ « سليمان » : اني عنه في سعةٍ
وفي غنىً ، غير اني لست ذا مالِ

شحّاً بنفسيَ أني لا أرى أحداً
يموت هزلًا ، ولا يبقى على حالِ
الرزق عن قَدَرٍ في المال نعرفه
ومثل ذلك الغنى في النفس لا المالِ

فقطع عنه « سليمان » الراتب .

فقال الخليل :

إنَّ الذي شقَّ فمي ضامنٌ
للرزق حتى يتوفَّاني
حَرَمْتني مالاً قليلاً ، فما
زادك في مالك حرماني

فبلغ الشعر « سليمانَ » ، فأقامه وأقعده ، وكتب الى الخليل يعتذر اليه ، وضاعف راتبه ، فقال « الخليل » :

وزلّةٍ يكثر « الشيطان » إن ذكرت
منها التعجب جاءت من (سليمانا)
لا تعجبنّ لخيرٍ زلّ من يده
فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

وأما المثال الثاني من الزمن الحاضر ، فهو استاذ الأثري ومعلمه ، ومثاله في الحياة وفي لغة العرب : علّامة عصره (محمود شكري الآلوسي) . يقول عنه بإعجاب : « هذا

الرجـل الذي ملأ الدنيـا علما ، ولولا أنني أصغـر تلاميـذه وآخرهم لقلت : ونشأ تحت جناحه الأعلام .. هذا الامام الكبير هل رأيت مجلسه الجليل ما كان أثاثـه ؟ كان تخـوت خشب أجرد ، لا فراش على مقاعدها إلا « مدات الصلاة » من مدات القطن المستعملة في المساجد .. وما كان مركبه ؟ كان مركبه رجله ، وما كان ملبسه ؟ كان هذا اللباس العادي « زبون » يشد عليه حبلا ، ويستره بجبة ، وفي رجله حذاء غليظ يقتطع رقبته ، و « يَمَني » أصفر لا أظنه اشترى غيره في حياته كان يحتذيه في بعض الحالات ، وكم كان راتبه الشهري من هـذا التدريس ؟ سبعة دنانير عن التدريس في جامع داوود باشا في الحيـدرخانـة ، من الصباح الى أذان الظهيـرة ، ومثلها عن التدريس في جامع السيد سلطان علي من العصر الى الغروب ، ثم عوّض عن هذا التـدريس في اخريـات عمره بـالتدريس في مدرسة جامع مرجان ، وأظن أن راتب هذه المدرسة كان خمسة عشر دينارا في الشهر ، فكان يتبلّغ بهذا الراتب ، وينفق منه على السيدة شقيقته وعلى خادمه العجوز (خليفة) ، وعلى القائم بشراء حاجاته اليومية ، وكان الى ذلك يؤلف الكتب الروائع ، ويدفعها الى المطابع دون مقابل من المال !

الوطني العفيف

وكان محمود شكري الآلوسي ـ في أكثر الروايـات التي



مع علماء العربية

قيلت على ألسنة شهود تلك الحقبة صورة لتاريخ مثالي للانموذجية العراقية ، في العفة والوطنية ، ويحكى كما أيد ذلك تلميذه الأثري : « انه لما استولى البريطانيون على بغداد ، حاسنوه من أول دخولهم الى المدينة ، وكان مصدر هذه المحاسنة ما علموه من سموّ ذاته وتجرده ، وما خبروه من عظم مكانته عند المسلمين وغيرهم ، فأرادوه على الافتاء ، فأباه ، وقال : « الافتاء واجب ديني يقوم به الفقيه في الاسلام احتسابا ، وليس منصبا رسميا وراثيا ، وقيودا وظيفية » . ثم أرسلوا رسلهم كذلك ، وفاوضوه في إحداث منصب أعلى ، وهو « منصب قاضي القضاة » ، فرفضه .. واجتاحت العراق من أثر الحرب العالمية الاولى ـ أزمة اقتصادية خانقة ، اشتدت به وبأمثاله من ذوي الدخل اليسير المحدود ، فحملوا الذهب اليه ، فرده بشمم وإباء ، وقال لحامله اليه : « خير لي أن أموت جوعا من أن آخذ مالا لم أتعب في كسبه » كما حدّث بهذا الوسيط الذي لابس هذه الأحوال بينه وبين البريطانيين ، وهو تلميذه بالمراسلة (الأب أنستاس الكرملي) ، وكتب هذا في تأبينه له ، وتلي عنه على رؤوس الأشهاد في (المجمع العلمي العربي بدمشق) في الحفلة الأربعينية المشتركة بين السيد الامام الآلوسي والكاتب المنشىء المبدع مصطفى لطفي المنفلوطي الشهير .. ومما قاله الكرملي : « وكان (السيد

الامام الآلوسي) وصل الى حالة قاصية من الحاجة الى المال في عهد الاحتلال .. فلما عرف ذلك (المعتمد السامي برسي كوكس) أهداه ثلاثمائة دينار ذهبا انكليزيا ، وكلفني بتقديمها اليه .. فلما أتيته بها ، رفض قبولها بتاتا ، وقال : « خير لي أن أموت جوعا من أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه » .. فألححت عليه الحاحا مملا مزعجا ، فأبى ، وقال : « لا تكثر ، لئلا أطردك من بيتي طردا لا عودة اليه ! » .. إلا ان فاقته كانت وِقْرا عليَّ وعلى محبيه .. الى آخر ما كتب ونشر ..

ومما يعرف في محيط العلم والدين ، ان (الأثري) كان التلميذ الوحيد من بين كثرة كاثرة ، نشر علم الآلوسي في الكتب والصحف ، وحقق كتبه ، وأذاع رسائله ، ووضعه في منزلة الحق ..

النبوغ والذكاء

وتجلت في (الأثري) ، في صغره ، عناصر نبوغه : الفطنة ، والذكاء ، وملاحظة الأشياء ، واستيعاب حالات واقع الأسرة في ما يخص حركة الأب ، ولعل ذلك سيظهر في كبره فمن أين جاء اليه هذا الذكاء ، يقول : إن كنت أنت تزعم لي « النبوغ » فأنا لا أزعمه لنفسي في صغر ولا في كبر ، وتقدير ذلك متروك لغيري إيجابا أو سلبا ، إثباتا أو نفيا . ولعلك زعمت لي النبوغ في الصغر من قولي إنني أتقنت قراءة القرآن الكريم

كله وتجويده ، وأنـا في السنة السـادسة من عمـري . وهذا صحيح لا ادعاء فيه ، ولا تزيّد ، ولكن هل يعد ذلك نبوغا في مقـاييس الذكاء في عـرف علماء التـربيـة والنفس ؟ لا أملك الاجابة عنه . والظاهر أنه استعداد فطري للتعلم رُكّب في طبعي كما يركب مثله او أعلى منه في طبـاع الكثيرين ، فيكـون لهم الظهور الى جانب عوامل أُخر وراثية . وقد كان والدي مع قلة علمه بالعلوم النظرية صاحب طوية صافية وفراسة حـاذقة ، وكان أبوه عجبا في الذكاء والقدرة عل استيعاب الأشياء في يسر وسهـولة ، كما كـان كذلك في تصـرفه في التجـارات المختلفة والضرب في الآفاق . وقد حذق مع العربية التركية والكرديـة والاوردو ، وقـانون الوراثـة معروف ومـطبق في الدراسات ، ولا يخلو انسان من موروث وآخر مكتسب يزيده الاجتهاد قوة وظهورا .. فاذا توافر لامرىء هذان العـاملان ، كـان هنالك ما يقال له « النبوغ » ، او « العبقرية » . ورأي (الأثري) أظهرت صحته الدراسات النفسية مؤخرا !

وهل هذا الذكاء جاء اليه من أبيه أم من امه ؟ وأيهما أثّر فيه ؟ فيرى هو : « كلاهمـا لا ريب من حيث الوراثة ، ومن حيث التنشئـة والتربيـة .. وقـد أوحيـا اليّ من فـطرتيهمـا وموروثاتهما ومكتسباتهما ما أوحيا من المثل الكرائم في الأقوال والأعمال والتوجيه والتسديد ، على أنني كنت أدرك بفـطرتي

ذلك ، فلم تكن بهما حاجة الى الاكثار معي من النصائح ، ولست أتذكر أنني اضطررتهما الى أن ينصحاني بشيء …

قسوة ام صراحة ؟

ويظهر لي أن (الأثريَ) كان شديدا في طفولته ، وربما اكتسب هذه الصفة من بيته في هذه التربية الصارمة ، ولعل من بين عناصر هذه الشدة : القسوة .. التي تحمل الفرد على أن يكون جدي النظر في مسائل الجدل الفكري .. والأثري يرفض هذا التحليل ، ولم يقْبلْه ، وعدّ القسوة فيه « اتهاما » له .. انظر كيف يدافع عن رأيه :

« لو كنت الآن قاسيا ، لأجبتك : أنْ نعم ، كنت قاسيا في طفولتي ، لأن الطباع مركزة في حاقّ الجبلّة ، لا تتبدل ولا تستطيع بعض المكتسبات من رياضة النفس على الأيام أن تخفي معالمها في السلوك مهما تصنع المرء وحاول أن يخفي ما في نفسه .. وما أصدق شاعرنا العربي الحكيم زهير بن أبي سلمى إذ أدرك هذه الحقيقة فقال :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ
وإن خالها تخفى على الناس ، تُعلمِ

وأنت ، يا لطيف الطبع ، ماذا رأيت مني من القسوة ،

فتوجه اليَّ هـذا الاستفسار ؟ أتعـدّني قاسيـا .. لأنني رجل صاحب قضية ، قضية أمة ومصير ، أستمسك بعراها وأشدها شدا ، وأدنـح عنها .. عن مُثُلها وقيمها وأقدارها ، وبها يقوم وجودنا ويبقى ويدوم ويزهو .. إن كان ذلك ، لزمك أن تراجع نفسك ، لتحكم بالحق .. ونحن أمة الحق والعدل والانصاف ، وإلا فأين الميادين الأُخر التي بدوت فيها قاسيا وظالما ، وأنا ليس لي غير ميدان الفكر والقلم والنشر ، وأنا فيه الصريح كل الصريح ، وأديب النفس ، ونظيف التعبير ولا فخرَ ... وحكمي على الأشياء لا يعدو في طبيعته هذا النهج ولا يتجاوزه .. وأنا أعلنها صـريحـة في نيـة صـافيـة وقلب سليم ، ولا أدعي العصمة ، ولا أزكّي نفسي على الله .. فان كانت الصراحة تعدّ قسوة ، فذاك رأي لا أفهمه ، وللناس فيما يتخيلون مذاهب .. وأنا أعلم أن القسوة ، أو الشدة في الأصح ، قد تكون في طلب الصـلاح مرحمـة ، كما يكـون من شأن الأب مـع ابنه اذا استعصى عليه صلاحه ، فأخذه بالشدة ليعتدل ويستقيم على الطريقة ، فهذه القسوة أو الشدة إنما هي رحمة ، ومن هنا قال الشاعر الحكيم :

فقسـا ليـزدجـروا ، ومن يـكُ حـازمـاً
فـلْيَقْسُ احـيـانـاً عـلى مـن يـرحـمُ

وهذا شيء حسن ، ولكني لم أصادف في عـلاقاتي من

يحملني على أن أقسو عليه وأغلظ ، نعم ، صادفت بعض الجهل ، فقابلته بالحلم ترفعا ، أو بالصفح عنه تأديبا لصاحبه ، عسى أن يرشد ويرعوي ويكون « إنسانا » ..

وبعضُ الحلْم عند الجهـ
ـل للذلّة إذعانُ

نقش اللغة

وتضلع (الأثري) باللغة العربية ، ومرت به تجربة تعلم هذه اللغة في الكتاتيب ، أو في مدارس الدولة ، وتعلم اللغة هو غيره في اختصاصات أُخر ، وثمة مقولة في إحدى نظريات التربية تقول : ان اللغة العربية تبدأ منذ الطفولة ... أي ان إتقانها يبدأ في طفولة ، أو يظهر في طفولة الأطفال ، وقلت له : ما مدى صحة هذه المقولة ؟ قال :

« صحيحة كل الصحة ... لكن لماذا تخص الأمر باللغة العربية وحدها ؟ ان اللغات كلها انما يتلقاها الأطفال ويثقفونها سماعا من أهليهم في جميع البيئات ، يحفظونها منهم رويدا رويدا ، ويحاكونهم في اللهجة والأداء والجرس والأسلوب ، فيكون ذلك طبعا عندهم ، يستعصي على التبديل ، والعلم في الصغر كالنقش في الحجر ، كما هو مدرك حسًا في وضوح تام في لهجات الأقطار العربية مثلا ، وقد تمايزت بالنبر والمد والقطع

والمط والترقيق والتفخيم ، ونحو ذلك من أشياء ، تـدرك فيها لأول سماعك العربي المتكلم أو الخطيب أو الشاعر أو الشادي أنه من العراق أو الشام أو نجد أو الحجاز أو اليمن أو مصر أو المغرب ، بما يميز ألسنتهم من هذه السمات المنطقية ولهجاتها الخاصة ..

وفي أثناء قراءتي لجملة تقارير كان (الأثري) يكتبها لوزارة المعارف ينصح فيها أجهزة الوزارة بالطرق الصحيحة لتعلم اللغة بأساليب ناجعـة ، وضعت يدي عـلى اجتهاده في توحيد الألسنة في الأقطار العربية ، وكان اجتهاده نـابعا من وعي اجتماعي لمفهوم الأمة ، ولمفهوم ان الامة العربية ينبغي لها ان تتوحد في لسان واحد ، بصفة هذا اللسان أكثر الوسائل العملية والعلمية لتوحيد الأقطار العربية في وحدتها السياسية والجغرافية واللغوية ، ومن جملة ما دعا اليه في هذه التقارير والتوصيات ، تلقين الأطفال في كل قطر عربي الألفاظ الفصيحة السليمـة من اللكنـة وفسـاد الحـروف والأعجمي الدخيـل والعامي ، وايحاؤها اليهم طبعا من غير تكلف في البيت ، ثم في المـدرسة ، لتسلك بهم هـذا النهج اللطيف المحبب إسمـاعـا وإقراء ، بالقياس الى الأعمار والمدارك وما يوائمها من الألفاظ والمعاني والمقاصد ، ومترقّين بهم في سلّم المعرفة وتكوين ملكة الفصاحة العربيّة في نفوسهم ، حتى ينشؤوا على نمط واحد او

متقارب في الأداء والجرس وسلامة التعبير وجماله .. وان جهد (الأثري) في تلك التقارير لهو جهد قومي النـزعة ، عـربي المنحى ، في زمن كان فيه صوت الأمة واهنـا في المؤسسـات الثقافية الرسمية ، ولقد أثبت جهده التربـوي في اللغة .. ان هذه اللغة هي مـظهر الأمـة الروحي ، وهي ترتبـط بحياتهـا ارتباطا عضويا ، فلا بد من إيحاء هذا المعنى الى النشء ، بكل عمق ووضوح ، ليكون منه منطلقهم الى العناية بها ، والحرص على استيعابها والتفقه فيها ، واستعمالها سليمة فيما يتحدثون ويكتبون ويؤلفون ..

* * *

وما كانت بلاغته بلاغة لولا تجويده في سن الطفولَة في الكتاتيب ، وما كانت قراءته لغة عالية سامية لولا تكراره لقراءة القرآن .. وكان كل ذلك الأثر الأول في انطباعه على فصـاحة الألفاظ وبلاغة التراكيب ، ثم جاءت بعد مرحلة الكتاتيب عشرة أعوام تلقى فيها (الأثري) العلم بالتركية ، وخـالطها تعلم لغات أعجمية ثـلاث ، فلم تستطع أن تـطمس في نفسه أثـر البـلاغة القـرآنية ، إنهـا الطفولة ، وكـانت في (الأثـري) تستجيب الى اللغة ، والى الحفظ ، ولما استجابت ، أنشأت فيه ملكة البلاغة ، وصار بعـد ذلك بلاغيـا ، بلاغـة في التعبير ، وبلاغة في صفات التعبير ، وبلاغة العـرب نمو في الذاكـرة ،

وتطبع في اللسان على قدر إمعان الطالب في الدرس والتفهم والحفظ ، وليس ذلك الدرس الذي يؤخذ من كتب البلاغة ، وهكذا هي بلاغة العرب تمثل منذ عهد الطفولة ، وعلم يسهل فهم الأساليب البلاغية كيف تكون وسيلة وليس غاية ، لأن علم البلاغة يبصر دارسه بالبلاغة الكلامية ، ولكنه لا يحدث ملكتها ، ودارسه قد يكون عالما جد عالم بقواعده وتعريفاته ومصطلحاته ، ومع ذلك لا يجيء منه بليغ يحسن انشاء رسالة في مطلب صغير اذا هو قصر جهده على ذلك وحده ، ولم يأخذ نفسه بحفظ الكلام الجاري على أساليب العرب من القرآن والحديث وكلام السلف البلغاء ومخاطبات فحولهم في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم .

قلت : ان البلاغة نقش في الطفولة ، ويروي (الأثري) في هذا : « ومن طريف ما سمعت من الشيخ الفقيه أمجد الزهاوي (إذ كنت أتلقى عنه اصول الفقه ، وكان خاتمة مشايخي ، ثم صرت معلم نفسي) ، وقد انجرّ الحديث بيننا ذات يوم الى علم البلاغة وفائدته ، فذكر لي أنه اطلع على نسخة من كتاب « الأطول على المطول » في المكتبة السليمانية ، وهو أوسع كتب البلاغة النظرية في منهاج الدراسة التي يسمونها « الجادة » ، فوجد على ظهره كتابة قال كاتبها انه « قرأ هذا الكتاب بالبغداد » ! كذا بادخال « ال التعريف » على

(بغداد) أشهر المعرفات ! فأين محصول هذا الرجل من قراءة علم البلاغة ؟ وقد انتهى بها الى أوسع كتبه وأطولها حتى سمي « الأطول على المطول » : إذ كان هذا كل مكسبه من الدرس ، وغاية حظه من معرفة لسان العرب ..؟

* * *

وفي سنة من سنوات (المجمع العلمي العراقي) سألت (الأثري) ، وكنا نخرج من محاضرة في البلاغة العربية ، عن المثل الأعلى الذي يكتب من أجله ، فأدرك مقصدي السياسي .. لكنه لم يقل سياسة ، وانما أجاب عن هذا السؤال بلغة المؤرخين « الدبلوماسيين » قال : « فنون الكتابة وأساليبها ، ضروب ، وكل ما توافرت فيه صحة الفكر ، وسمو العاطفة ، والابداع الفني ، وجرى على مناحي الفصحى ، هو مثلي الذي أتضلع وأرتوي منه ، ليكون منه منطلقي الى الابداع على قدر الطاقة وانبساط الذرع .

وهنا تذكرت قول (الأثري) قبل حقبة طويلة :

سلامٌ .. ومن حيّيتُ ، ايُّ رؤومِ
علَيَّ لها ، في الحمد ، دينُ غريمِ

سلامٌ على امِّ اللغات ، على المدى
سلامَ اخيذٍ بالجمال هيومِ

مشوقٍ الى الجرس الرقيق ، ومفصحٍ
من اللفظ منسوق البيان رحيمِ

الأثري بين الأمس واليوم !

عمر مضى سدى !

رأيت هاتين الصورتين للأثري ، وتذكرت قصيدته « عمر مضى سدى » التي قالها قبل حقبة بعيدة ، ولا أدري لماذا تذكرتها ؟ أهو الشباب الذي مضى ولا يعود ؟ ويروى أن (الأثري) كان ذات يوم سائراً لطيته بين الرصافة والجسر قريبا من داره القديمة ، واذا مهاة من صواحب ابن الجهم شاعر « عيون المها » .. في أروع صورة خلق الله ، يضرب عليها الشارع نطاقا من الأحداق ، وتسايرها الآهات ، ويسمع (الأثري) من شيخ طاعن في السن ، « آها » يوجهها الى صاحبه وعيناه معلقتان بالفتنة المتبرجة .. فقال الأثري يصف ما رأى وما سمع :

رآها كخوط البان تهتزّ نضرةً
وكالوردة البيضاء ، فتّقها الندى
كأنّ النسيم الرطبَ مال بقدّها
فأسكره من نفحه ، فتأوّدا
تقتّلَ منها كلُّ عضوٍ ، فقتّلتْ
نفوساً حواليْها مواثلَ شُهّدا
فقال ، وقد حنّت يدُ الدهر ظهرَه
وآنَ من الحرمان : (عمرٌ مضى سدى)

اخـو الشيب .. أدرى بالحياة مذاقـةً
ولكـنـه عـن نـيـلهـا قـاصرٌ يـدا
صحـا بعد سكـرٍ عـاجـزاً عن طِلابهـا
كـظمـآنَ لم يـمـلكْ الى المـاء مـوْردا





اللجنة العربية العليا

القدس : في ٩ ربيع الأنور ١٣٥٥

٣٠ مايس ١٩٣٦

حضرة الوطني المفضال ، الأستاذ الكبير/محمد بهجة أفندي الأثري المحترم ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد قرأنا في الصحف العراقية بيانكم الحكيم عن فلسطين ، ووجوب مساعدتها في محنتها ، وعضدها في قضيتها ، وما حواه من شعور صادق وحمية دينية متقدة ، فجزاكم الله خير ما يجزي رجاله العاملين على نصرة دينه القويم .. ولقد تلقى الرأي العام العربي في فلسطين هذا البيان بالتقدير العظيم ، لما تضمنه من شعور صادق ، وثقة مؤيدة ، وعطف شامل . وان هذه البلاد العربية الاسلامية الصابرة المجاهدة لفي أشد الحاجة الى عطف العالمين الاسلامي والعربي ، والى غيرة العاملين المخلصين ، وهي تستمد من هذا العطف قوة تستمر بها في جهادها حتى تنال أمانيها بإذن الله تعالى .. ختاما نرجو أن تبلغوا تحيات فلسطين وتقديرها الى أعضاء جمعية الشبان عل ما أبدوه ويبدونه من عواطف طيبة نحوها ، آملين أن يستمر (العراق) في نجدة (فلسطين) التي هي منه واليه .

رئيس اللجنة العربية العليا

محمد امين الحسيني

الفصل الثامن

النشأة الاولى

القرآن

وشب (الأثري) وكانت تجري على لسانه اللغة التركية مجرى اصطناعيا ، يتكلم بها ويحسن خطها ، ويحرر فيها رسائله .. وهكذا أراد « الاتحاديون الماسونيون » في الامبراطورية العثمانية أن تصبح الألسنة العربية ساكنة في فلك ثقافتهم .. لكن (الأثري) كان قلبه عربيا ، عربيا بالقرآن ، لأن حفظه القرآن في الكتاتيب جعله مشدودا الى الامة ، وهذا القرآن يلخص روح الأمة باللغة ، وعربية القرآن هي التي كانت تسود في القلوب قبل أن تسود فيها اللغة التركية ، ولغة المستعمر مهما تعاظم شأنها في قواعدها ونظمها ومهما حفلت من سحر بياني وتزويق انشائي ، عاجزة أن تبسط (روحها) على اللغة الأم ، وكما رأينا في (بلدان المغرب العربي) هزيمة اللغات الأجنبية ، كنا نرى هنا في (بلدان المشرق العربي) هزيمة اللغة الطارئة في بداية الرحيل النهائي للعثمانيين من العراق ، وفي لحظة انتصر (الأثري) في صراعه مع الازدواج اللغوي ، فترك اللغة التركية ، وكتب بالعربية أجمل انتصاره ، وفي بداية العشرينات كتب كتبا في هذه اللغة ، وصعد الى منبرها بزهو .

مدارسه

وينهي مرحلة (الكتاتيب) بست سنوات من عمره ،

ويدخل المدرسة الابتدائية النظامية ، وكانت لعهده المرحلة الثانية للكتاب الأهلي . وفي هذه المدرسة التي كانت تتولاها الدولة تعلم دروسا في العقائد والعبادات ، ودروسا في قواعد تجويد قراءة القرآن ، ودروسا للقراءة في كتب خاصة باللغة التركية تحفل بالقصص القصار ومقاطع من الشعر التركي وبالرسوم تمثل الحكايات ، ودروسا في الخط العربي على وفق قواعد وضوابط وضعها الخطاطون الفنانون العرب قديما ، ودروسا في التاريخ والجغرافيا والهندسة وحفظ الصحة ، وكل ذلك باللغة التركية . وقد أنهى (الأثري) هذه الدراسة الابتدائية لأول بلوغه السنة العاشرة ، ولم يدرس خارج المدرسة خلال هذه السنوات دروسا نظرية ، وانما درس دروس الحياة ، او ما تيسر له منها ، في الفروسية التي دربه عليها والده ، وفي تعرف العلاقات التجارية والاجتماعية في اصطحاب والده في أعماله ومجالسه ومجالس أصدقائه من التجار والضباط والموظفين ، وهم صنوف شتى على ما يذكر الأثري من ذلك الزمان ..

حتى اذا اكتمل صباه تراه ينخرط في (المدرسة الرشدية العسكرية) ... وهذه المدرسة العسكرية هي المرحلة الأولى في نظام الدراسة العسكرية العثمانية . وهي مدرسة نهارية تليها مدرسة اعدادية وهي نهارية ليلية ، يرسل خريجها الى دار

السلطنة العثمانية (اسلامبول) حيث يتلقى الدراسة العسكرية العليا .. وتنقل لنا الوثائق : انه كان للدراسة العسكرية شأن مرموق في أنظار البغداديين .. وقد زين أصدقاء والد (الأثري) سن الضباط العسكريين أن ينتمي ابنه الى هذا السلك العسكري ، فأطاع ، وغاب عن أذهانهم شيء مهم ، وهو احتمال عوده الغض (وتلاحظ صورته في صباه وشبابه ، وكان أقرب الى النحول ، وتربيته ناعمة) مشاقّ التدريب العسكري .. ولقد مضى الى قريب من أخريات أيام الدراسة في الدرس العسكري في يسر ، ثم التدريب ، ولكن في ضيق منه انتهى الى اصابته بذات الجنب ، وكان الى الموت أدنى منه الى الحياة ، وغلبت ارادة قدره فمسحت يده شدته ، فسلم ، ونصح الطبيب العسكري التركي أن يهجر الدراسة العسكرية ولا يعود اليها بعد العافية .. وقد أفاد من هذه المدرسة منهجا في الضبط ، ومنهجا في الانضباط . وكانت العلوم تدرس باللغة التركية .. ولكن رجال الادارة والمدرسين كانوا كلهم ضباطا عراقيين ، ومعهم مدنيون اختصوا بتعليم اللغة الفرنسية واللغة الفارسية ، والخط العربي وتجويده ، والعلوم التي تلقاها فيها : الرياضيات والجغرافيا وتخطيط القارات بالألوان ، والهندسة ، والرسم ... وكان الانضباط والتزام النظافة واقامة الصلاة جماعة ، أظهر السمات التي اتصفت

بها المدرسة . ووافق كل ذلك مزاج (الأثري) ، فأحبها حبا شديدا ، وفارقها اضطرارا ، وهو كاره لهذا الفراق ، وما فتىء الحس العسكري على هذا النحو من السمات يخالجه ويتوثب في داخله ، فيحن اليه .. وخارج هذه المدرسة درس اللغة الفرنسية في بيته ليزداد علما بهذه اللغة ، اذ كانت من لوازم تلقي الدراسات العسكرية العالية ليتأهل لها في يسر ، وقد خصه والده بمعلم يتقن هذه اللغة ، كان يأتي الى بيته فيعلمه قواعدها وقراءتها وكتابتها ، فأفاد منه إجادة الخط اللاتيني على الأسلوب الفرنسي ، وأشياء من هذه اللغة أضافها الى مكتسباته منها في المدرسة ، وأعانته من بعد في تعلم اللغة الانكليزية في (الأليانس) وعلى أساتذة خصوصيين !

وفي إبان أيام النقاهة من المرض الذي أصيب به (الأثري) ، وقضي أن يستجم زمنا طويلا من الدراسة النظامية التي تتطلب مجهودا متصلا لا يوائم طبيعة النقاهة ، انتمى الى « محكمة الاستئناف » وكان هذا الانتماء أشبه بالتنزه يسلي به نفسه في عمل سهل خفيف .. وهو نسخ أحكام المحكمة في سجلاتها ، وكانت الدولة العثمانية تفتح باب ما تسميه (المداوم) من الوظائف المجانية ، تعدّ به من تسميه (المداوم) للوظيفة ذات الراتب بعد ظهور كفايته واقتداره واستحقاقه لها .. وكان لأبيه ابن عمة موظفا في هذه المحكمة ،

فيسر له الانتماء اليها باسم (مداوم) ينسخ أحكام المحكمة باللغة التركية ، ولغة هذه الأحكـام محدودة ، وتختلف طولا وقصرا بحسب أهمية الدعوى وملابساتها ، وارتضى الرؤساء حسن خطه وجودة نقله ، فعينوه ـ بعد زمن قصير ـ موظفـا براتب مع صغر سنه .. وكـان ينتظر فتـح أبواب القبـول في (المدرسة السلطانية) لينضم اليها ، ويمضي في الدراسـات طموحا الى العلم ومكتسباته الرفيعة ، فما لبث عند تسني ذلك له ان استقـال ، وقدم الى المـدرسـة السلطانيـة الشهـادات المطلوبة ، فقبل . ولا ريب في أن عمله في محكمة الاستئنـاف غذّى لغته التركية ، وأضاف الى مادته فيها التي اكتسبها من والدته وفي المدرسة الابتدائية ثم الرشدية العسكرية (زاداً غير قليـل) ما كـان للطلاب مثله ، وفي هذا السيـاق كـان يفقـه الدروس في المدرسة السلطانية بسهولة ، ويتقدم الرعيل ويكون الأول دائما بحسب الوثائق المعروضة أمامي ..

* * *

وفي المدرسة السلطانية ، وهي امتداد للمدرسة الرشدية العسكرية ، وجد لأول مرة مدرسين من الترك يشرفـون على التدريب وعلى النظام وتحفيظ الأناشيد ، وكان منهم في القسم الأول من المدرسة المدير في زي علماء الدين ، ومدرس النشيد والتربية شاب في زي مدني ، وكانت الأناشيد التي ينشدونها

مجتمعين في باحة المدرسة فخرا وحماسة (بالطبع) تمجيدا للدولة ، وحثا على الجهاد ، وغالبها باللغة التركية ، ويورد لي (الأثري) جزءاً منهـا : (جهانكيـرانهْ بِـزْ دولَتْ چقا ردقْ برعشيرتن) ، ويترجمها (الأثري) : أي أنشأنا دولة عالمية من عشيرة ... ويشير ذلك الى بداية نشأة الدولة العثمانية من عشيرة من الرعاة قدمت الأناضول ، واستولت على دويلاتها ، ثم امتـدت فتوحهـا الى أنحاء من آسيـة وأوربـة وأفـريقيـة الشمالية ... والنشيد الوحيد باللغة العربية الذي كان الطلاب يرددونه دائمـا نشيد شـاعر العـراق الكبير إذذاك معـروف الرصافي : « نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن ـ ما لنا غير اكتساء [illegible] الكفن » ، وأكبر الظن أن الرصافي ترجم هذا النشيد عن شاعر تركي ، وليس من ابداعه ... أما العلوم التي درسها (الأثري) في هذه المدرسة ، فهي كثيرة ، منها : تاريخ السلاطين العثمانيين ، والسيرة النبوية في كتيب (باللغة العربية) للشيخ مصطفى الغلاييني أحد رجال النهضة ، من علمـاء بيـروت ، اسمـه : (لبـاب الخيـار في سيـرة النبي المختار) .. وهنا قلت للأثري : هل الدراسة باللغة التركية في هـذه المدرسـة وما سبقهـا عرقلت مـوهبتك في تعلم العـربية وعلومها ؟ قال :

الموهبة لا تعرقل .. الموهبة هي هي في كل ما تتناوله من

شيء ... ولو مضيت الى آخر الشوط في اكتساب العلم والأدب باللغة التركية ، فلعلي كنت أبلغ فيها مـا بلغته من بعـد عند تحولي الى الدراسات العربية والاسـلامية .. ولا شـك في أن الدراسة الأولى لو كانت باللغة العـربية ـ استمـرارا للقراءة القرآنية في الكتاتيب ـ لتقدم زمن ظهوري بها نحـو عقد من السنـين ، ولكن لا يفوتنـا قول الحق أن هـذه الدراسات في الابتدائية والرشدية العسكرية والمدرسة السلطانية قد فتحت ذهني ، ووسعت آفـاقه ، وبصـرتني بالكثـير الكثير من فقـه الحيـاة ، وعلمتني تلقّي الأشياء بـالعقل الفـاحص والناقـد لما اسمعه أو يلقى اليّ أو اقرؤه .. ومما يظهر ان هذا التنويع الذي استلهمه (الأثري) من تعليمه في هذه المدارس كانت له (ابعاد) ذات شأن في حيـاته العلميـة والأدبية ، وفي جملة نزعات لاستقلالية وسلوكه ..

مدرسة الأليانس

وتلك مدرسة اليهود في بغداد ذلك الزمان ، درس فيها (الأثري) ولماذا ؟

السبب هو أن الاحتلال البـريطاني عـطل (المدرسـة السلطانية) ، وأبقى على (الاليانس) وحده ، ثم تقدم خطوة فأنشأ (دورة) مدتها ستة اشهر لتخريج معلمـين للمدارس الابتدائية ، فأمها (الأثري) ، وطلب من مديـرها (محمـد



يتامل في حال العلم !

عبدالعزيز المصري) أن يقبله فيها (مستمعا) يسمع الدروس العربية والدروس الانكليزية فقط ، لا (طالبا يتخرج معلما) .. فرفض طلبه ، فاتجه من فوره الى المشاور البريطاني وشرح له الحال ، فكتب هذا في قصاصة صغيرة يأمر المدير المذكور بقبول الأثري في الدورة (مستمعا) للدروس التي اختارها ، فقبله على مضض ، وحضر محاضرات الشاعر جميل صدقي الزهاوي ، فوجده (يقرأ مختارات من الشعر العربي وقلما يفسر غريبا) وكل شيء منه كان غريبا على (الأثري) .. فانصرف عنه الى سماع الدروس الانكليزية وحدها ، وثابر عليها الى نهاية الدورة ..

بعد انتهاء هذه الدورة بقي (الأثري) عاطلا ، فبحث عن مدرس خاص يقرأ عليه الانكليزية ، فوفّق لما أراد ، بيد أنه سرعان ما اكتشف ضياع مستقبله اذا ما استمر على هذه الوتيرة .. وكان رجل جليل من أهل محلته له أبناء عدة يحرص على تعليمهم ، فزين لوالد (الأثري) ، أن يدخل ابنه معهم مدرسة (الاليانس) .. وهي مدرسة منغلقة ، استحدثتها الطائفة اليهودية ببغداد لأبنائها خاصة ، يعلمونهم فيها اللغات الثلاث ؛ العبرية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والرياضيات ، وعلوم التجارة والاقتصاد .. وكان يديرها مدير فرنسي يهودي ، فارتأى أن يفتحها شيئا قليلا بوجه الطلاب المسلمين أيضا ،

فقبل (الأثري) بمسعى جاره ، فكان واحداً من سبعة عشر طالبا من الاسر المعروفة في بغداد والكـاظمية ، وكـانت اللغة العبرية محرّمة على الطلاب المسلمين .. وحـرص (الأثري) على تعلمها ، فأقنع طالبا يهوديا أن يعلمه حروفها ونطقها في خلسة من المعلمين كلما تسنح الفرصة ، فـوافق ، وثقف منه شيئـا قليـلا ولم يتم له الاستمـرار ، إذ أحس مـعلم مـن الحاخاميين ، فزجر الطالب اليهودي فارتعب منه ، فانقطعت بينهما الأسباب ، كما انقطعت بين الطلاب المسلمين السبعة عشر وبين الاليانس جملة واحدة ، حين تشاجر واحد منهم مع حاخام ، فضربه الحاخام ، فاجتمعوا عليه يزجرونه وينصرون صاحبهم ، فانكفأت عليهم المدرسـة ، وكانـوا كثرة كـاثرة ، فخرجوا منها ولم يعودوا اليهـا ، لما رأوا من عصبيـة القوم وانغلاقهم ولؤمهم ...

لم تظهر مواهب متفردة في (الأثري) في أثناء دراسته في هذه المدارس تجعله يتجه الى الأدب ؛ لأن هذه المدارس لم تكن تـؤهل الطلاب النـاشئين للانتـاج الأدبي والشعري ، وانمـا انحصرت علاقته في أثنائها بأترابه من الطلاب ساعات الالتقاء على صعيد الدرس ، ثم بالوجوه التجارية والعسكرية والعلمية من أصحاب والده عند مصاحبته له في مجالسه ، اما ما برز فيه خلال هذه الحقبة من الفنون ، فهو تجويد الخط العربي

(بـأعلى صـور الاتقان والاتسـاق) ، وبـراعـة في الرسم ، وتخطيط الأطالس الجغرافية .. مع تقدمه على أترابه ، فقد كان الأول في الصف مدة الدراسة الابتدائية ، والسابع عشر من مئة وعشرين طالبا في الرشدية العسكرية ، والأول مرة والثاني مرة في المدرسة السلطانية ...

قدره الثابت

وكان قدره الثـابت أن يهجر (الدراسـة الرسمية) ، ويتجه الى العلوم الحرة ، ويصبح (الأثري) كما هو الأثري (نابغا) في الدراسات العربية والاسلامية ، منذ قادته إرادة والده الى أن يتعلم وأن يكون وجها بين وجوه المجتمع في أرقى سماته ، هو العلم ، وقد طلبه ابتغاء الهدف العام ، إذ ليس وراء العلم مطلب أسمى وأشرف غير العمل به ، وتصريفه في تهذيب النفوس وهداية العقول وتحقيق الخير العـام .. ونجم القدر المقدور له في لحظة خاطفة بتحوله الى التخصص بالعربية وآدابها والعلوم الاسلامية النقلية والعقلية ، وكانت الحاسمة في تقرير مصيره والتوجه الى ما خلق له كما يظهـر .. وكيف حصل ذلك ..؟

استقـرأه والده ذات يوم صحيفـة من هـذه الصحف السياسية التي بدأت تظهر ببغداد باللغة العربية بعد الاحتلال

البريطاني (ولم يكن بعد إقرائه القرآن في « الكُتّاب » قد مارس شيئا من العربية غير هـذه العاميـة ، وكل مـا يحسنه بعض الاحسان هو هذه اللغات الاعجمية) فاذا به يتلكأ في قراءة هذا الكلام العربي المدون في الصحيفة ، لأنه لم يمارسه من قبل .. في هذه اللحظة أنطق القدر والده بقراره أن يهجرهذه المدارس الرسمية .. وليس ثَمَّ إلا مدارس وزارة الأوقاف وهي مدارس حرة ، يقوم على كل مدرسة منها مدرس فرد ، اذن فلا مناص من أن يقصد مدرسة من هذه المدارس يرتشف منها ، العربية وآدابها ، لا لاتخاذها له وسيلة الى ولاية الوظائف الدينيـة ، ولكن لمجرد اكتساب حلية العلم والأدب ، وقد وجد أبوه بـين هؤلاء الناس علماء كبارا ، لهم مكانة عالية في النفوس ، بفضل ما أوتوا من العلم والأدب والتقوى والصلاح ، فأحبّ له في تلك اللحظة أن يكون من طرازهم في المكانة الاجتماعية وفي التأليف ونشر العلم والأدب .. وقضى القدر أن يمضي فيما يسر له دأبا من غـير انقـطاع ، مقـاومـا للمعـوقـات ، وجـادا في الطلب والاجتهاد .. وكلما قطع شوطا في فن من فنون العربية تاقت نفسه الى شوط أبعـد منه ، فكـان معلم نفسه إبـان التلمذة وبعدها ، وما كان كسبه من أساتيذه غير التوجيه والتبصـير والاخلاص فيه من غير حدود ، مع العلم الغزير وحسن الاسوة وأدب النفس مع أدب الدرس ، وهي حظوظ من التوفيق والخير

لا أجزل منها ولا أجلّ ، وقد انتفع بتمثله لها أكثر من انتفاعه بالعلم الذي أفاضوه عليه ، وأوحى اليه منهجهم أن يضيف الى ذلك تعليمه نفسه زيادة على ما تعلم ، وظل في كل ما عاش معلما لنفسه بالملاحظة والنقد وطول الدرس والعكوف عليه ..!

* * *

وإذ جلس في خلية الجامع يدرس يوما أو بعض أيام ، جابهته صعوبات جمة كادت تبعده عن درس العلم ، ذلك هو درس (النحو) الذي أوقعه في حيرة من أمره ، وعندما ابتدأ به رأى أن هذه الصعوبات التي جابهتـه تنحصر في الكتاب وفي غياب الفكر التربوي عند المدرسين ...

كل شيء من علم النحو ومصطلحاته وأبوابه وفصوله ، كان مجهولا عنده ، لا يعرف منه كلمة واحدة ، وكان أول شيء بدأه ـ وقد اختير له شرح العشماوي على الأجرومية ـ البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) فبدأ الشيخ مدرسُه يشرح هذه البسملة بأن قال : « كل أمر ذي بال لا يبدأ بها فهو أبتـر » والأثري لا يعرف بعد ما دلالة « ذي بال » وما معنى ابتر ؟ ثم أفضى الى الباء فقال : الباء حرف جر ، ثم ذكر له معاني الباء في العربية ، وطفق يشرحها ، ويذكر الفرق بين الرحمن والرحيم في الاشتقـاق والدلالة ، وعرج عـلى النعت وأنواعـه ، ، ويمضي استاذه في هذا الكلام الغريب ساعة أو تزيد والأثري (الطالب

الناشىء) يسمعه من دون أن يفهم شيئا ، ويكاد يتمزق غيظا .. ثم أقبل على الفقه ، فلم يع ما قرر منه له كأن شيئا ران على ذهنه فحجب عنه الفهم ، وخرج من الدرس بالجهل أكثر مما كان عليه من قبل .. وقص على والده الحال ، فصبّره ، فصبر عاما كاملا قرأ خلاله من كتب النحو العشماوي ، والأزهرية ، والفاكهي ، وهي شديدة على طالب ناشىء يلقن ما فيها من مماحكات وتقارير على هذه الشاكلة من الافاضة في أشياء غامضة عليه ينبغي أن تساق اليه رويدا رويدا ، وان لا يقرر له شيء منها قبل أوانه .. حتى اذا انصرم هذا العام الثقيل ، انقطع عن الدرس ، عازفا عن هذا (النحو) المظلوم بسوء العرض ، وعن كتبه هذه جملة وتفصيلا ، لأنها لم تلاحظ فيها مدارك الناشئين وما يعقلون وما لا يعقلون .

وهنا صاح به قدره .. أن اثبتْ لا تنهزم وابحث ، فان الطرق السالكة الى ما تبتغيه مفتوحة بوجهك ، فاسلكها ، وسر واصبر ، وكل من سار على الدرب وصل ! ففعل الأثري ، وهدي الى شيخ آخر جليل العلم والقدر هو من رجال هذه المدرسة أيضا ، لكنه يدرك حاجة الطلاب ويلبيها ، فقصده ، وقرأ عليه عوامل الجرجاني وشرح الإظهار في النحو للبركوي ، وطرفا من الفقه ، وانتفع بتقريره كما انتفع بتمثل تقواه وصلاحه على مثال انتفاعه بسمت الشيخ الأول في التقوى والصلاح ، غير انه

لم يطل الأخذ عن هذا الشيخ ، اذ كان (الأثري) يستشعر في نفسه طموحا الى أفق أعلى .. وزاد باحساسه هذا قوة يوما بعد يوم ما صار يسمع من مشاهير العلماء والشعراء والكتاب من أهل العصر ، فحرص أن يكون مثلهم في هذا الشأن ونحوه !

الآلوسيان

وكان اسم علامة العراق محمود شكري ومؤلفاته في التاريخ واللغة والاصلاح الاسلامي يدور على الألسنة في المجالس بالاعجاب والاكبار ، وكذلك ابن عمه الفقيه الشاعر القاضي علي علاء الدين .. وذكر للأثري أن الشاعر معروفا الرصافي هو تلميذه الأول وخريجه ، فحدثته نفسه أن يؤمه ، ويأخذ عنه هذا العلم والأدب .. لكن كيف يصل اليه ..؟

كان لوالده صديق يحضر مجالس السيد الآلوسي ويتأدب بأدبه وفكره . فتوسط له عنده في الطلب ، فاعتذر له بأنه لا يعلّم الناشئين ، فحزنه اعتذاره ، ولكنه لم ييأس وقال في نفسه : لا بد من أن يجيء يوم غير بعيد يبلغه عنه ما يجعلني أهلا للاقتباس من علمه .. ثم توجه الى العلامة علي علاء الدين في المدرسة المرجانية من غير وساطة اليه ، فسأله عن شأنه أسئلة كثيرة ، فأجابه عنها ، فأذن له في الأخذ عنه في المدرسة المرجانية في الصباح ، وفي مجلسه الذي يحفل بخواص

أصحابه أصيلا بين العصر والمساء .

ويروى عن العلامة علي علاء الدين الآلوسي : أنه كان يبجل (الأثري) في مجلسه اذا دخله ، فيقوم له في مجلسه الخاص (خاصة) فيقوم معه كل الحاضرين ، ليشعر (الأثريَّ) الطالب ويشعرهم إجلاله للعلم وتوقير طلابه مهما صغرت سنهم .. إنه طراز فريد في الأخلاق والنبل وإجلال العلم .. وما كان ليقف به عند حدود ما يتلقاه عنه من العلم والأدب ، فأشار عليه أن يتلقى القراءات السبع عن الأديب الحافظ المقرىء (عثمان الموصلي) شيخ عصره في القراءة القرآنية غير منازع ، ففعل (الأثري) .. وانتفع من هذا الشيخ المقرىء الكبير . أما ما قرأه على شيخه الآلوسي ، فالمجموعة الصرفية ، وكتاب نزهة الطرف في علم الصرف للميداني ، وشرح قطر الندى لابن هشام ، وكتب مبادىء اللغة للاسكافي ، وصدر من المخصص لابن سيده ، والشهاب في الحكم والآداب للقضاعي (١,٢٠٠ حديث نبوي) ، وطرف من الفقه ، ومقامات أبي الثناء الآلوسي ، ورحلاته الثلاث ..

يشرح (الأثري) صفات منهج أستاذه بدقة ، وكأنه يعايشه اليوم لوثوق هذا المنهج في نفسه ، ولأنه المنهج الذي رأى فيه : النطق الصحيح ، والأداء المتزن ، والاتقان السمح ، ولديه من إملاءات أستاذه اليومية طرائف حفلت بها بعض كتبه ، تأنق في كتابتها ، وأتقن حفظها ، ويتذكر حقبة

الدرس على يديه .. « إنها ستة أشهر في هذا النعيم الروحي العقلي ، ضمت أوقات الأصائل وأوقات الأصباح ، وكل ساعة من ساعاتها ، ملء الزمن علما وأدبَ درس وأدبَ نفس وما شئت من فضائل وفواضل ، كانت باعثتي على حب العلم والأدب ، وتعشق العربية والاسلام المنطقي السمح الجميل ، الجامع على الخير والمانع لوساوس الشر والتفرقة ، أوحاها الى نفسي عقل هذا العالم المفكر بسمته وصلاحه وجميل طريقته ، فعلقتها وعيا وسلوكا وانبعاثا حادا الى التوغل في جوانب المعرفة .. » ، ثم حرم هذا النعيم العلمي والروحي لإصابة استاذه بالفالج ..

وبعد هذه الحقبة ينتقل الى العلامة المؤلف المحقق محمود شكري الآلوسي الذي يعده الأثري أستاذه الأكبر ، لأنه على يديه نزع نزوعاً شديداً الى التأليف والبحث والتحقيق والنشر ، وفي خليته تعلم مجداً أدبياً ، فألف فيه ، وحقق كتبه ، واكتسب منه الشهرة ناشئا ..

(على هامش سيرة الأثري)

رأيته في بيته حزينا ينام على مرض مضنٍ ، فدغدغت فيه عاطفة العقل في العشرينات ، فما انطوى حزنه ، قال : هذا حزن النهاية ، فأثار فيَّ عاطفة الكبر ، وقلت له : هذا اذن

شوطي الاخير معك ، قال : تحدث وحدث ، حتى تحادثنا عى هامش سيرته ، قلت :

* من (الأثري) بعد الموت ..؟

قال الشيخ الأثري : هو بعد الموت ، هـو في حياتـه في الأذهان بالقدر الذي حققه في المجالات التي أجرى فيها قلمه ، وجاهد في سبيل عزة الأمة والملة ، غير مقصر ولا وانٍ ، و « إنما الأعمال بالنيات » وكل مذكور بعمله ومجزيٌّ عليه ..

* اذن ما الموت ..؟

ــ الموت نقلة من دار الى دار ، وعـودة هـذا الجسم الترابي الى التراب ، وتبقى الروح التي تقمصته حية خالدة برضوان الله بما قدمت من عمل صالح يرضاه .

* وهل اختلف مفهوم الموت لديك عما كنت شابا ..؟

ــ لا ..

* مـن يخـاف مـن المـوت أكثـر ، الشـعـراء ، أم الفلاسفة ..؟

ــ سلهم يجيبوك ، وستجد جواب كل واحد منهم مختلفا عن جـواب الآخـر ، وصـادرا عن طبيعـة تصـوره للمـوت والحياة ..

* هل مررت بمرحلة فكرت فيها أن الحياة عبث ..؟

ــ حياتى العلمية والعقلية قامت منذ النشأة على الدرس

والنظر والتأمل في سلسلة متصلة الحلقات ، بعضها يؤازر بعضا ، وقد استقر في عقلي من نتيجة ذلك أن خالق الموت والحياة جل وعلا لا يصدر عنه عبث مطلقا ، وله في كل ما يقدر ويقضي حكمة بالغة .

* ماذا أفدت من الحياة وبماذا برمت به منها ..؟

ــ هذا السؤال ، كل أبناء آدم شركاء فيه .. سل نفسك ، فما تجيبك به هو جوابي ، ولا سيما في الشق الأول من السؤال . أما ما برمت به من الحياة ، فهو الظلم ، وبغي الناس بعضهم على بعض بغير الحق .

* وأية غريزة هيمنت عليك أكثر من غرائز الحياة الاخرى ؟

ــ غريزة حب الناس ، وحب الحياة الهانئة المطمئنة التي تيسر لي ـ تحت ظلالها الوارفة ـ العمل النافع لنفسي ولهم جميعا ، وتبعد عني المنغصات والآلام النفسية ، وأنى لي ذلك ؟

* هل ربحت من عقلك ..؟

ــ العقل رأس مال الانسان ، ومن يصرفه بالحكمة والتدبر يظفر بالأرباح الطائلة ، معنوية ومادية ، وعلى رأس هذه الأرباح طمأنينة النفس وراحة الضمير ..

* والضمير ..؟

ــ هو المعنى الحي في داخل النفس ، الذي تصدر عنه

الأفعال سليمة ، كسلامته وبراءته من الخبث والحقد والغش .

* هل يفنى عقلك بعد الموت ..؟

ــ عقل الانسان باقٍ بالآثار التي استطرفها ..

* واذا كان عقلك باقيا بعد الموت ، فمن جمهوره ..؟

ــ جمهوره كل من تسنى له أن يقرأني من رواد الكلم الطيب ، وطلاب المعارف النافعة ..

* شهرتك في الخارج (ألمع) أم في الداخل ..؟

ــ لا أملك جوابا دقيقا عن هذا السؤال ، لسبب واضح ، وهو أنني لم أتتبع الأمر ، بل لم أجل فيه فكري قط .. فلا أدري أين هي (ألمع) ، وفي أذهان من ..؟ على أنني لا أحفل بالشهرة ، فهي ليست مقياسا صحيحا لأقدار الرجال وقيم الأشياء ، ففي إمكان « البهلوان » أن يحدث لنفسه شهرة واسعة في صفوف الجماهير البدائية ، ولكنها لا تكاد تستعلن حتى يختفي بريقها ، وتطويها الظلمة ، والعبرة كل العبرة في جواهر الأعمال ، فهي وحدها الباقية على وجه الزمن .

* ويقال : أنت تخاف الشهرة ..؟

ــ لا أفهم لهذه المقولة معنى ، ولا أعلم من أين عقل القائل ذلك عني ، فنسب اليَّ بالوهم ما تنكره الحقيقة بالعيان .. ففيم هذا الخوف من الصيت الحميد الذي يجيء الانسان عفوا ، رهوا وسهلا ، من استحسان لأفكاره

وأعماله ؟ الصحيح أن يقال عني انني لا أطلب الشهرة فيما أفعل من خير ، وأقدم من عمل .. وأنت نفسك قد فهمت ذلك من حالي ، وأعلنته في الفصل الأول وأنت صادق . فان تسألني : ما علة ذلك ؟ أقل لك : انني طالب علم وهداية ، وطلب الشهرة لا يلائم طبيعة العلم والهداية ، وأخلاق العلماء نفارة من المظاهر الغرّارة ، والبهارج الخداعة ، فهي سراب ، والباقيات الصالحات خير وأبقى ..

* وأين تضع نفسك بين علماء العرب في القرن العشرين ..؟

— أضع نفسي حيث تضعني أعمالي المنوعة في موازينها بالعدل والقسطاس المستقيم ..

* هل من حكمة تؤمن بها في آخر هذا الشوط ، وهي حكمتك الدائمة ..؟

— حكمتي هي أن أضع (الحكمة) نصب عيني فيما آخذ وأترك (ومن يؤت الحكمة فقد أُوتي خيرا كثيرا) ، وقوامها الايمان بالله والعلم والاستقامة ، وبلاغها العمل الصالح النافع دأبا من غير انقطاع عن شيء منه ما عشت (فإذا فرغتَ فانصبْ ، وإلى ربّك فارغبْ) و « احرثْ لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واحرثْ لآخرتك كأنك تموت غدا » ..

* * *

أيها الأثري..

فماذا أقول فيك بعد هـذا الطواف في حضرة أعمـالك وجلائل أسرارك ، فقلت الذي يرضي وليس فيه اسراف ، وقلت الجزء الوفي من هذا الكل : الأثري الذي لامس محيط الضاد بغير الزلفى ، فنحن كارهان للزلفى ، فأنا من حفدة لغتـك ، وأنت من حفدة الخليل والأصمعي والجاحظ ، وكل هذا الكوكب اللغوي المنير ، ونحن الحفدة ، أو الأجداد ، لا نصنع إلا هذا المعروف اللغوي الشريف الذي يؤسس دولة الألفاظ ، ويبني عز الماضي بوحي الآتي ، فاسكن أنت ظلال الحـاضر بعد أن أديت رسالتك راضيا ومطمئنا ، ولا تحزن من سوء مر عليك في سالف أيامك ، أو من سنين مكلفة تطبق عليك فتجعلك تتكىء على مرض أو وهن في العظام أو القلب ، فهي مشيئتنا جميعا ، فتلك حياة ، تشب ثم تنمو ، ثم تزهر في الكبر ، ثم تهرم ، إنما أنت الآن تمتد في قلوب تلاميذك ، غصنا فـوق غصن ، حتى تصير الأغصان ، في غد ، شجرة ، يستريح في فيئها طيفك ، هو طيفك لم يمت ؛ لأنه استمد جذره من بغداد ، واستوحى نوره من الذرا ، أتعلم : أن الذين يبتكرون الذرا هم الخالدون ؟كن معي أيها (الأثري) ، أو كن مع لقيط بن زرارة حين يناشد قومه :

وإنّي من القوم الذين عرفتهم
اذا مات منهم سيّدٌ قام صاحبهْ
نجوم سماءٍ كلّما غار كوكبٌ
بدا كوكبٌ تأوي اليه كواكبهْ



في ندوة اكاديمية المملكة المغربية التي عقدت في مراكش ١٩٨٤
ويظهر في الصورة : أحمد عبدالسلام الحائز على جائزة نوبل والاثري ..



عزيزي الاستاذ حميد المطبعي ...

لقد تحدثنا في موضوعات مختلفة في تبسط كثير، وانا مجهد، ولكنني لم استطع ان اخرج على ارادتك، فلم يجيء ماسجله المسجل على نحو ما احب، ولذلك رايت تلخيصه والاقتصار على الاهم مما خضنا فيه، وارجو ان يهمل ذاك ..

ولك الشكر ..

[من رسائل (الاثري) الى المطبعي في ١٩٨٥/٢/٢٣]

ومع العلم والحياة وتطوراتها ..
صور ومُثُل في هذه المجالات من فكره في نثره الفني :

(١)

« ... والغَلَبُ في نواميس التكوين إنما يكون للأصلح دائما مع طول الجهاد والصبر ، وهو قانون لا يتخلف إلا من علّة غير منظورة .

وواضح أن الطمع والحرص على احتواء النعم والامتيازات ، يلقيان في رُوع أصحاب السياسات والامتيازات ما ليس له وجود في الواقع ، وهم حين يُدْعَوْن الى الصلاح في أي شأن من شؤون الحياة ، يتوهمون الخسران وضياع المكانات وفقدان الامتيازات ، فيقاومون ويقاتلون بغير عقل .

ولننظر ماذا خسر رؤساء المشركين من العرب حين تركوا شركهم ، ودخلوا في الاسلام ..؟ ألم ينتفعوا به هم والفقراء المستضعفون من أتباعهم في دنيا وفي دين ؟ ألم يصبح خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ؟

ان الحقيقة الأزلية في نواميس الحياة ، قد تصيبها السياسات والعصبيات بشيء من الضرّ ، ولكنها في جميع الأحوال تعجز عن طمسها أو إزالة معالمها .. ثم هي ـ أعني

السياسات والعصبيات ، لا تملك الفصل في شأنها ، وليس ما تصوّره تزيينا أو تقبيحا هو واقع الحقائق ، وانما يفصل فيها (العلم) وحده ، بتجرّده المطلق ، ونزاهته ، و « موضوعيته » الخالصة من الشوائب والأهواء . إنه يعنيه من الأشياء ، في كل شأن يَعرِض له ، تعرّفُ الحقائق في عريها وسفورها كيفما كانت الحال ، وفي أي صورة تكون عليها ، واذا كانت السياسات والعصبيات تبني أحكامها على الأهواء والأغراض الخاصة ، لا تحيد عنها ، فإن العلم يبني تصوراته وأحكامه على البيّنات غير متحيّز ولا متحرّف ، وهو يستمدّ هذه البينات من الوثائق الأصلية الصحيحة مما يدوّنه الانسان بنفسه خاصة ، لأنها فصل الخطاب والحجة البالغة . ومن هذه الوثائق الأصلية ونحوها يستنبط العلم التصورات ، ويهتدي الى مقاطع الحق ، فيوقن ، ثم يرسل أحكامه التي لا تستأنف ولا تميّز كما يقول القضاة » .

(٢)

« .. إن لهذه الأمة من غِناها بالإيمان بالله وبحقها المقدس ما يسدّ المَفاقر ، ومن نفس كل جندي من جندها المؤمن المتطوع في سبيل الله جيشا من الأمجاد والمفاخر ، يكتب لها

بموته الحياةَ ، ويحقق لها بالحرية المنشودة النعيمَ .

وما زال حفدة نـور الدين وصلاح الدين يُـرُون حفدة أرناط ورتشارد بسالات من بسالات أجدادهم العظمـاء ، في طبرية وحِطّين وبيت المقدس وكل شبر من أرض فلسطين أذاقت فيه الجيوش الاسـلامية الأوربيين الغزاة كـؤوس المنايـا ، وسربلتهم بعار الهزيمـة والاندحـار حتى طهرت من أدرانهم البلاد .

وستستمر هذه الجـذوة المقدسـة من البطولات ، التي دهش لها العالم ، الى ما يشاء الله ، حتى تحين ساعة الفرج بالإدالة من القاسطين ، وتكتسح مـوجة الغُـرّ الميامـين هذه الأدرانَ التي علت البلاد ، كما اكتسحتها بالأمس الى الشمال من طريق « الدردنيل » ، وأوفت عليها موجةً بعدَ موجةٍ حتى انتحت بها الى أسوار « فيَنَّة » !

ولست أرى في هذا الحاضر إلا مثال الماضي ، تتـراءى صوره وأشباحه وأخيلته في كل مكان طرازاً من ذلك الطراز .

فغارة الغرب اليـوم على الشـرق ، كيفما كـان لونها ، لا تختلف في صميم بواعثها ونتائجها عن غارة الأمس .

و (فلسطين) التي كانت مـركز التـطاحن بين قـوتي الشرق والغرب ، وكان مصابها الفادح باعثاً لأمم الإسلام من

عرب وأكراد وتركمان على اتحاد كلمتها لصدّ الغارة،بل دحرها بالانكفاء يداً واحدة على العدو المغير حتى افترّت شفتها بابتسامة النصر .. قد عادت اليها اليوم محنة أمسها الدابر في مختلف شؤونها وأحوالها ، وإذا محنتها هي محنة هذا الشرق العربي الإسلامي ، تتلاقى عندها همومه ، وتتذامر من أجلها شعوبه ، وتجتمع على تذليل عقباتها حكوماته وملوكه وساسته وقادته ومفكروه .

وكانت لقمة في فم المعتدي الغاصب ، ما كاد يزدردها حتى نشبت بين مَسْعَلِهِ ولَهاه ، تجاهده للخلاص ، وتجالده للحرية ، والأمم العربية والإسلامية يومئذ كالغافلة عنها بشؤونها الداخلية ، الى أن استرعاها أمرها رويداً رويداً ، وألّبها على معونتها ونصرها بما يدخل في طاقتها المادية والمعنوية ، فتعالى الصوت من كل صوب ، وكثر حديث ثوراتها في البلاد ، فكان شغل الناس ، ومثار عناية الحكومات العربية ، وملتقى تقاربها في المساعي السلمية لحل معضلتها بما يتيسر ، وهي ماضية في سبيلها من الجهاد المقدس الذي تفغم أنفاسه الشذية دنيا العروبة والإسلام بعطر البطولات ، وتوقظ في كل روح معانيَ البسالة والنجدة والفداء ، الى أن يدق ناقوس الخلاصٍ ، ويقدّر الله لهذا الوطن المحبوب منقذاً كصلاح الدين ، ويوما كيوم حِطّين .. يأتي به النصر المبين ،

وتكتسح موجةً التطهير أدرانَ المغيرين ، وتسمو كلمة الحق ، فيقول يومئذ قائلنا للأحياء ، لا للأموات : ها نحن أولاء حفدة صلاح الدين ، فأين أنتم يا حفدة كودافرو ؟

ولله عاقبة الامور » .

من مقال كتبه في سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ ، ونشره في « مجلة العالم الاسلامي » (مجلة جمعية الشبان المسلمين)

(٣)

... وتهدّيت من جملة ما قرأت من التاريخ الى أن كل صراع بين قوم وآخرين ، وراءه خلّة من خلّتين ، تنفردان حينا ، وتتلاقيان حيناً آخَرَ فتكوّنان رافداً واحداً يدفع الى الاقتتال .

احدى هاتين الخلتين ، حبُّ الامتلاك والاستحواذ ، والرغبة الجامحة في العلو في الأرض ، تستشري في أعماق العتاة المغامرين ، وتدفعهم الى البغي على المستضعفين من حولهم .. لا يَزَعُهم عنه وازع من عقل أو ضمير او خلق ، ولا يردعهم عن الاقتتال إلا قتال مثله او أعنف منه ، يضادُّون به ، صوناً للأرواح والأعراض والأموال أن تستباح ، وحمايةً لتراب الوطن أَن يستحوذ عليه بغير الحق بغاة آثمون مدمّرون ، يتعشّقون الهيمنة ، ويتنفشّون بالاستعلاء !

والخلّة الأُخرى ، هي هذا التعصب للموروثات القديمة من الآباء ، على فسادها طبعاً ومنشأً وغاية . ومن شأن هذه الخلّة أنها تغطّي على البصائر تغطية الظلام على الأبصار ، وتورث الجمود الذي يتأبّى الانفتاح على الجديد المفيد الممتع ، وتستبقي الفاسد : عقيدةً تقدَّس ، ووثناً يعبد ، وشريعة للحياة مضللة تزري بالحياة الإنسانية التي كرّمها الله ، وتقعد بها عن معالي الأمور . ولكن التعصب الأعمى لا يحس هذه الزراية ؛ لأنه متبلد ، والعقول المسحورة به لا تستطيع الانفصام عنه ، لأن سلطانه عليها ذو هيمنة بالغة ، فهي تَعَضّ على ما هي عليه من فكر ونوازع ومعتقدات بالنواجذ ، وتدافع عن كل ذلك دفاعاً مستميتاً ، وتقتل دونه ولا تتخلى عن شيء منه .. سُنّةٌ ، مضى عليها أصحاب الأهواء ، الأولون والآخِرون (إنّا وَجدْنا آباءَنا على أُمّةٍ ، وإنّا على آثارِهم مقتدون) .

وهذا التعصب ، في كل ألوانه وصوره وحالاته ، يتجسّد ، لا عندَ السواد الأعظم الذي لا يعقل الحقائق ولا يعلم النيات التي في الصدور ، لكن عند الرؤساء المشعبذين « النصّابين » المنتفعين من كدّه ، وكل كسب عندهم من عنده ! فهؤلاء هم وحدهم المتعصبون الحقيقيون المفسدون للحياة ، واليهم مردُّ هذا الصراع الذي يدور بين الأقوام ، وهم يصطنعون هذا التعصب الأعمى ، ويغرسونه في نفوس

أتباعهم ، استبقاءً لدوام هيمنتهم عليهم ، وحفاظاً على زعاماتهم ومنافعهم وما يمتلكون .

ولذلك ترى هؤلاء وأولئك في كل زمان ومكان في عمى عن الرؤية الصحيحة دائم ، وفي صمم مطبق مستمر ، تُضاءُ لهم الأنوار الساطعة ، فيعشون منها ويغمضون أبصارهم دونها ، مفضلين عليها الظلام الذي هم فيه ؛ ويلقى اليهم القول الطيب الحسن ، فيصمون الأسماع عنه ، ويضعون أصابعهم في آذانهم حَذَر أن ينفذ اليها اليقين ، الذي يزعزع الضلال والباطل ويذهب بالنوازع الشريرة ، ويدعون الى الحق ، فيلوُّون الأعناق ، ويصدّون عنه صدوداً ؛ وينادون الى (السلم) من موقع القوة والقدرة ، فيؤثرون (الحرب) وإن جرّت البلاء على أبناء جلدتهم أكثر مما تجرّه على من يتصورونهم أعداء ؛ والى الألفة والوفاق ، فيجنحون الى الفرقة والشقاق ؛ والى فضائل التعايش السلمي الكريم وتبادل المصالح المشتركة بالموادّة والمصافاة والمساواة ، فيزدون ذلك أقبح رَدّ ، ويُصِرّون على الحِنْث العظيم غروراً واستكباراً ، وكأنهم لهذا الشر خُلقوا ، ولله في خلقه شؤون !

ان التاريخ البشري ـ منذ قتل (قابيل بن آدم) أخاه (هابيل) ، وتركه في العراء لم يوارِ سوأته ، فواراها

(الغراب) ! ـ حافل من هذا الصنف من البشر غير السوي بالكثير الكثـير ، ومن شناعـاته بـأقبح مـا يتخيله الذهن من الصور المنكرة للحروب المدمرة ، والمشاهد الدامية المحزنة .

وما فتىء هؤلاء يتكررون ، وتتلاحق شرورهم على وجه الزمن ... ونشاهد اليوم من صورهم الشنع أقبح الأحوال ، ومن شرورهم وهي تتحرك هنا وهناك ما يذهب بالنعيم الذي أتاحه الله وأباحه للانسان ليسعد ، ويلقي على الحياة المشرقة الوضيئة حَلَكَ الشقاء».

من كتابه (ذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحروب)

وأمثـالُ هذه الروائـع من أفكاره ونـوازعـه في منثـور كتاباتـه ، الشيء الكثير .

من شعره

جملة أشعاره .. مشاعر حيّة نابضة ومضيئة ، تواكب قضايا الإنسان ووجدان الجماعات بعيدةً عن الفردية ، وتتغنّى للحرية والانعتاق ، ممتزجةً بعَصَب الحياة . وطامحةً الى التسامي والشموخ ..

ومن مُثُلها هذه الطاقات الوردية ، وهي نزْر من كثير ، وغيض من فيض :

يـاهُـمُـومـي ؟ تـأخَّـري . مـا بـأهْـلي
مِـن هُـمُـومٍ ، بِـأنْ تُـدافَـعَ أمْـثَـلْ
أهْـلِيَ (النـاسُ) ، إذْ يـكـونـون سـلْمـاً
لا يُـعـادون مـثـلَ سـلـمـي وأعـدلْ
إنّ أهـلي كُـلٌّ ، وإنّـيَ بـعضٌ .
أنـا ثـانٍ ، وعَـدُّ أهْـلِيَ أوَّلْ
إنّ ريـحـي ، مِـن ريـحـهِـمْ تـتـهـادى .
وشِـراعـي ، بِـريـحـهـمْ يَـتَـرسَّـلْ
مـا دَهـاهُـمْ مِـن صـائـلٍ يَـتـعـادَى
إنّـمـا سَـهْـمُـهُ إليَّ المُـعَـجَّـلْ
وإذا اخْـضَـلَّ عـيـشُـهـم مِـن نـعـيـمٍ
مُـخْـصِـبِ الخـيرِ ، طابَ عـيشي وأخْـضَـلْ[1]
مَـنْ يُـقَـدِّمْ حُـقُـوقَ أهْـلِيـهِ ، يَـعْـقِـدْ
طَرَفَيْ سُـؤْدَدٍ ومـجْـدٍ مُـؤَثَّـلْ
قـد شـكـرتُ السَّـحـابَ جـادَ حَـيـاهُ
كُـلَّ أرضٍ ، ولم يَـخُـصَّ ويـبْـخَـلْ

(١) اخْضَل ، كاكرم ، واخْضَلّ كاشتدّ : بمعنى واحد . والخضل ككتف : كل - شيء نَدٍ يُترشَّفُ نداه .

لا تَطِيبُ الحياةُ عِنْدِيَ ، إذْ عَيْـ
شُ أُناسٍ جَدْبٌ ، وعيشي دَغْفَلْ[٢]
أَبْسُطِ الأُفْقَ . لا تُضَيِّقْ مَداهُ
وَسَعِ الناسَ ما تُقيمُ وتَرْحلْ

(٢) عيشٌ دغفل : واسع مُخْصب .

أهل .. ووطَن

رَقْـرقْـتُ في صَـبَـوات (الأهـلِ) ألْحـانـي
وفي هَـوَى (الوطَنِ المـحـبـوب) تَـحْـنـانـي

الشـاهِـدَيْـن عـلى حُـبّـي ، وقـد عَـلِـمـا
مـا كُـلُّ مَـنْ يـدَّعـي حُـبّـاً بِـحَـنّـانِ

نـفـحـتُ حُـبّـي ذَكِـيّـاً في ولائِـهـمـا
كَـنـاسِـمِ الرَّوْحِ مـن وَرْدٍ ورَيْـحـانِ

أَصْـلٌ .. غَـذَانيَ معـسـولَ الهـوى كَـرَمـاً
زَكّـى وَلائـي ، وصَـفّـى نـبـعَ إحـسـانـي

فـإنْ هـمـا وَفَّـيـا ، وَفَّـيْـتُ شـكـرَهُـمـا
أَوْ ـ لا ، فـمـا أنـا بـالزّاري ولا الشـانـي

الصّدقُ ثُمَّ الصِّدقُ (*)

ذَرِ (الشعرَ) أَمْلاهُ الهوى وتكَذَّبا
وإنْ نَفَثَ السِحرَ الحَلالَ وطَرَّبا
... ...
... ...
أَلَمْ يأنِ (للعصر الجديد) تَطَلُّعٌ
إلى (الصدق) يَحْدُو موكباً ثمّ موكبا ؟
نكوصاً عن التهريج .. قد فات يومُهُ
وهذا أوانٌ يُلْقِمِ الزُّورَ أَثْلبا[1]
ووَثباً الى (العلياء) ..إنَّ حَوالنا
مَعاشِرَ قد رامُوا (السماواتِ) مَطْلبا
ولا تشغلوا بالشعر ، بالكِذْب مُصْحَباً
ورومُوا سُمُوَّ الشأنِ بالصدق مُذْهَبا
أَجلُّ وأحلى من تَزاويقِ شاعرٍ
يبيتُ على عُسْرِ المخاضِ لِيكذبا ،

(*) مقاطع منها .

(١) الأثلب : التراب ، والحجارة .

يُلِمُّ على شَمْثٍ كلاماً مُلفَّقاً
مِنَ البهْتِ رَيّاناً ، من الصّدقِ مُجْدِبا ،
ـ بُغامُ رضيعٍ .. هَمَّ بالنُّطْق فالْتوىَ
وأعربَ إعجاماً ، وأعجَمَ مُعْربا
يُناغي بألْفاظٍ فصاحٍ أعاجِم
تَخالُ بها الشَّهْدَ المُصفّى مُذَوَّبا
يُعاطَيك حِسَّهُ غيرَ مُبْهمٍ
وإن كان فيها نُطْقَةٌ قد تَأشَّبا
زَكِيّاً .. كسكّان السماءِ بَراءَةً ،
وكالورد مَنْضُورَ السَّريرةِ طَيِّبا
ـ وألحْانُ صَدّاحٍ من الطير ، شاقَهُ
من الروض لألاءُ الجمالِ فطَرَّبا
أَطابَ ، وساقى فَيْنةً بعد فَيْنةٍ
تَرانيمَ .. ما أحلى وأَغْذى وأطْيَبا !
صَفَتْ كالنُّضار التّبرِ أُخْلِصَ سَبْكُهُ
ورَقَّتْ كماءِ المُزْنِ صابَ فأَخْصَبا
نَصَبْتُ لها أُذْنيَّ صَغْواً ، وطالما
أصخْتُ لِتَحْنانِ الطيور تطرُّبا

هـــي الشـــعـــرُ مـــنـفـــومـــاً ..تَـــرَسَّـــلَ فِـــطْرَةً
فَـــهَـــزَّ ، ونـــاغـــى مـــن صـــفـــاءٍ فـــأَعْـــجَـــبـــا !

البلبل والشاعر

رَأْرَأَ والضوءُ يطاردُ الغَسَقْ
فهَشَّ للحسن وغَنّى وأرَقّ
وهامَ .. لايُمْسِكه العُشُّ ، ولا
يَقَرُّ فوقَ موضعٍ من النَّزَقْ
مستوفزٌ ، إنْ حطَّ في مُورقةٍ
هفا الى أخرى وغنّى وخَفَقْ
ما انفكَّ مهتزّاً ، كأنّ جسمَهُ
مُزأبَقٌ ، أو داحِضٌ على زَلَقْ
يُديرُ كاللولب رأساً قَلِقاً
تَلَفُّتَ الخائف من شرٍّ طَرَقْ
ويُرسِل الأسجاعَ ما حَلَتْ له
إنْ حَلَّ فوقَ أيكةٍ أوِ انطلقْ
مُحاذرٌ .. يدنو قليلاً ، فإذا
أحَسَّ نَبْأَةً ، تولّى من فَرَقْ
بَيْنا تراه هابِطاً ، إذا به
في حالق الجوّ كسهْمٍ قد مَرَقْ
يمرحُ بين روضةٍ حاليةٍ
وارِفَةِ الظِلّ وسلْسالٍ غَدَقْ

.. طُوَيْئِرٌ ، خِفُّ الجناح ، ناحل
كعاشقٍ عَذَّبهُ الحُبُّ فَدَقْ
لا يملأ العَينَ . ولكِنْ صوتُهُ
يملأ منك مِسْمعاً إذا نطَقْ
كأنَّ أوتاراً على لهاتِهِ
إرْنانُها كجسمه الناحل رَقّ
إذا الرياحُ اصطفقت ، تجاوبت
بسجعه الأرجاءُ كلّما اصطفق
كأنّما ترنيمُهُ مُقَطَّعاً
رَنّاتُ تقبيلٍ حسانٍ تُعْتَنَقْ
تَعشَّقَ الحُسنَ ، فحيثما رأى
أوضاحَهُ ، غَنّاه لحناً وصَفَقْ
كأنّه ، والسُّكْرُ في ألْحانِهِ ،
إصطبح الحُسْنَ شَمُولاً واغتبق

*

يابُلْبَلَ الأيكِ . تَطَرَّبْ ، وأعِدْ
سجعَكَ حُلْواً نَسَقاً بعدَ نَسَقْ
صوتك ، والصبحُ يمورُ بِالسَّنا ،
سِحرٌ لإسماعٍ ، فُتُونٌ لحِدَقْ

غَـرِّدْ . فـقـد أزعـج سـمـعـي غُـدوةً
صـوتُ غُـرابٍ في الدِيـار قـد نَـغَـقْ
إحـسـانُـك الدائـمُ يـمـحـو وَقْـعَـهُ
في أُذُنـي ، كـالنُّـور يـمـحَـقُ الغَـسَـقْ

*

أحـبـبـتُ مـن دنـيـايَ مـاطابَ بـهـا
مـن نـاغـم الصـوت ومَـيْـمُـونِ الرُّوَقْ
فـلا دهـا سـمـعـيَ مـشـؤومُ الصـدى
ولا عـرا أُنْسيَ مَـشْـنُـوءُ الرَّنَـقْ

*

سـلـواك يـاشـاعـرُ سلْوى بـلـبـلٍ :
حُـسْـنُ تُـغـادِيـه ، وحُـبٌّ قـد صَـدَقْ
حـظُّك مـن مـلكـيْـهـمـا مـلكُ الورى
حُـزْتَ بـه وحـدَك في الدنـيـا السَّـبَـقْ
يـاسـابـحَ الأشـواقِ في لُجِّ الهـوى
كـالنُّـور في الآفـاق هـامَ وأئـتـلقْ :
خَـلِّ كـثـيـفَ الطّبـع ، يَـرْتَـعْ في الّذي
شـاءَ ، كـمـا شـاء ، كـأمـثـال العَـلَـقْ
ان شـاءه رزقـاً حـلالاً طيّـبـاً
او شـاءه دَمـاً حـرامَ المُـرْتَـزَقْ

ليس النعيمُ في الرُّتوع ، إنَّما
إحساسُك الحُسْنَ النعيمُ والفَنَقْ
قد تَعدِل الدنيا لَدَيْك مُتْعةً
من نَظَر إلى الجمال والأنَقْ
إذا اتَّحَدْتَ بالجمال ، كُنْتَهُ
وكنتَ والحُبَّ رفيقَيْ مُنْطَلَقْ
غنَّيتُ ما غنَّى للألاء السَّنا .
لِلسَّحَرِ الزَّاهي . لِأضواء الشَّفَقْ
لِلْأُفق الضَّحْيان .. مارتِ الرُّؤى
على سناهُ دُفَقاً بعدَ دُفَقْ
لِلَخَضِلِ الرَّيَّانِ .. طَلَّهُ النَّدَى .
لِلزَّهْرِ والزنبقِ يزهو كالسَّرَقْ
للشَّجَرات الخُضْرِ .. تَنْدَى ، حَلْيُها
حُمْرُ اليواقيت كأُكْرات السَّذَقْ
للماءِ .. يجري سَلْسلاً سواقياً
تَصِلَ إذْ يَصِلُ في الأَيْكِ الوَرَقْ
للنَّسَم الحاملِ في أنفاسِهِ
رَيَّا الأَحِبَّاءِ على صدرِ الفَلَقْ

لِلأرَج النشوان .. نَثَّ عِطرَهُ
هَيمان ، كالعاشق ذاب واحترقْ

*

غنَّيتَ ما غَنَّى ومايَهْوى الهوى
من القُدود والنُّهُودِ والحَدَقْ
غنَّيتَ شعراً ، وتغنَّى هَزَجاً
كِلاكُما مازَجَ خمراً وعَبَقْ
إنَّ من الشعر غناءً شائقاً
كفاتِنِ الحُسْن يشوقُ مَنْ رَمَقْ
الشاعرانِ : بلبلٌ وشاعر
تَيَّمَهُ الحُبُّ ، وغَنَّى فاسْتَرَقْ
غَنَّى ، وماشابَ غِناءَ حُبِّهِ
كبُلْبُل الأيك - كِذابٌ ومَلَقْ
ذوب من الروح ، على لسانِهِ
يسيلُ اشواقاً تَلَظَّى من حُرَقْ
بقتاتُ من فؤادِه أزْوادَهُ
وليس مايُمْسِكُهُ إلَّا الرَّمَقْ
ومن مَعِينِ الحُسنِ زادُ قَلْبِهِ
عاشَ على الحسنِ ، وبالحُسْن ارتفقْ

هي الفُصْحَى ..(*)

عشِقناها وعِشنا في هواها
نَشاوَى ، لانَلَذُّ سِوى طَلاها(١)
وواعَجَبًا ! طَلٌ تُسْقَى حلالًا
وتجنُبُ عقلَ شارِبِها أذاها
واعذبُ ما يَطيبُ لنا شرابٌ
تُراشِفُهُ المُنادِمَ مِن لَماها
وحاسي كأسها نشوانُ صاحٍ
وليس كذاك مَنْ يحسو سِواها
كخمر (الخُلْدِ) لا تأثيمَ فيها
وتَمْنَحُ نَفْسَ شارِبِها مَهاها(٢)
رعاها الله ! ما أزكى هُداها
إذا دارت ! وما أسْنَى جِباها !(٣)

*

(*) مقاطع منها.

(١) الطلى: الخمر.

(٢) المهاةُ: الطراوة والحسن.

(٣) ماأسنى: ماأرفع ـ الجِبا: الجِباء، وهو مايعطيه الرجل صاحبه ويكرمه به.

مـيَ الروعـاء .. اغـنـاهـا بـهـاهـا
وابـلـغـهـا النـهـايـةَ مَـنْ بـراهـا[٤]
فـليس بـهـا لِتَـطْريـةٍ رِيـادٌ
تَـزيـدُ بـه ائـتـلاقـاً وَجْـنَـتـاهـا[٥]
وهـل بـالشـمـس مـن حَـوْجـاءَ حَـرَّى
إلى ضـوءٍ يُـوَهِّـجُ مـن سـنـاهـا[٦]
جِـلاهـا فـوقَ كُـلِّ جِـلَى سِـواهـا
وكـلُّ جِـلَى سِـواهـا مـن جِـلاهـا
مُـخَـلَّدةٌ الشـبـابِ عـلى الليـالي
فـلا يـدنـو مـشِـيـبٌ مـن جِـمـاهـا
يَـشـيـخ الدهـرُ حـالاً بـعـدَ حـالٍ
ومـاتـنـفـكُّ تـزهـو في صِـبـاهـا

---

(٤) الروعاء: الحسناء التي يعجبك حسنها وجهارة منظرها ـ براها: بَرَأها، خَلَقها.

(٥) الرِياد: الطلب.

(٦)الحوجاء: الحاجة.

رأيتُ بها الحياةَ جِلاءَ عَينْ
ونَهْلةَ غُلَّةٍ تُرْوِي صَداها[7]
وما نَعِمت بمثلهما سِواها :
تَدفُّقَ رِيُّها ، وصفا رُواها[8]

*

حَباها بارىء الأصوات أحلى
وأعذبَ ، مايعرف به صَداها[9]
فجّلاها - وقد كملت وشاقت
وحازت في المحاسن ماكفاها -
مهندسةَ البِناء .. فكُلُّ أختٍ
تُماثِلُ في تشَكُّلِها أخاها
مُحَبَّرةً .. كما جُلِبَتْ عروسٌ
لِلَيْلتِها ، وأبرقَ عارِضاها[10]

---

(٧) النهلية : الشربة . ـ الغلة : شدة العطش وحرارته . الصدى : العطش الشديد .

(٨) رواها : رواؤها ، وهو النظر الحسن .

(٩) حباها : اعطاها . ـ الصدىٰ : رجع الصوت يردّه الجَبَل ونحوه .

(١٠) محبرة : موشّاة ومزّينة . ـ العارض : صفحة الخد .

مُنغَّمَةً .. كأنَّ لها رِباطاً
مع الإيقاعِ تُوقِعُهُ خُطاها
مُطَرَّاةً .. مع الأنفاس تجري
مُطاوِعةً ، وتُغطيها مُناها
تَطَفُّ بها الحياةُ رِوىً ورِئْياً
وتَستقشي الحياةُ بها إيّاها(١١)
عَجِبتُ لها ، ومَنْبِتُها الصحارى ،
تُغذِّي إرْبةَ الدنيا لُفاها
... ...

(١١) تطف : تمتلىء وترتفع . - الرِّوَى : الريّ - الرِّئْي : حسن المنظر .

بغداد .. مدينة الحضارة والسلام(*)

طاولَتْ ناصِيةَ (الشمسِ) عَنانا
وشَأَتْ قاصِيةَ (النَّجم) عِنانا
ضاهتِ (الشمسَ) . ولكِن شأنُها
كان أعلى من عُلى (الشمس) مكانا
يَعْتري (الشمسَ) أُفُولٌ ، وَهْيَ في
أُفْقِها طالعةٌ آناً فآنا

.. ..
... ...

رُحِمَ (المنصور) .. هل شادَتْ بها
يَدُهُ إلّا حياةً وكِيانا ؟
سُدَّةُ المُلْكِ ، ومِن أطرافها
لَفَّتِ (الدّنيا) فِجاجاً ورِعانا
جَمَعْت تِيجانَها في واحِدٍ
جَمَعَ (المَجْدَ) مكاناً وزَمانا
دُوِّرت (كالأرض) وانْداحَ اسْمُها
وغدا أعظَمَ منها دوَرانا !
رَنَّ في (الدنيا) صَداهُ، وحَلا
يُطْرِبُ (الدنيا) على الدهر جَنَانا

(*) مقاطع منها

مـثـلَ سـجـعِ الطيرِ في كـلِّ فَـمٍ
وَمَـذاقِ الشَّـهْـدِ قـد مَسَّ اللسـانـا
أسـمـعـتْ مَـنْ لم يـكـن ذا مِـسْـمَـعٍ
وأعـارَتْـهُ لسـانـاً وبـيـانـا
دانَ (شـرقُ الأرضِ) بـالحُـبِّ لهـا
مـثـلمـا (المـغـربُ) بـالطاعـة دانـا
رَجِـمُ (الإسـلام) مـن أوْشـاجِـهـا
عَـطَفَـتْ بـعـضـاً عـلى بـعضٍ حَـنـانـا
... ...
... ...
نـهـضـت زهـراءَ شَـمّـاء الذُّرا
كـمَـنَـار اليَـمِّ يـزكـو وَمَـضـانـا
حـفَـلَتْ بـالعـلم والسـيـف مـعـاً
فـغـدت للعـلم والسـيـف صِـوانـا
قُـرِنـا في قَـرَنٍ ، فـاسْـتـحْـصـدا :
صـاحـبَ العـلمُ لَدَيْـهـا الصَّـوْلَجـانـا
تـحـتـهـا (دجـلة) يـجـري ضـاحـكـاً
يَـحْـمـلُ الخِـصْـبَ ويَـسْـتـنْشي الجِـنـانـا

مُمْتِعاً من كُلِّ نُعْمى غَضَّةٍ
بالبواكيرِ رِطاباً وسِمانا
ألِقَ الأوضاحِ لَمّاحَ السَّنا
يدفُقُ البِشرُ عليه هَيَمانا
كَذَوِيها .. رِقَّةً رَقْراقةً ،
وجمالاً وصفاءً وحَنانا
مَنْ تَرَى رَقْرَقَ في صاحبه
خُلْقَهُ الأزهرَ واللونَ الهِجانا ؟
بأبي (بغداد) ، بَلْ بي . وأنا
وأبي قَلَّ لِـ (بغدادَ) فِدانا !

يافلسطين ..

إصــبِـري في الحــادث المُـسْـتـفْـجِـلِ
إنّـمـا العِـزّةُ أن تَـسْـتـقـتـلي !
واســألي «نــيـرونَ» يُـذكـي نـارَهُ
في ســواد البـأس نــورُ الأمَـلِ !
وانْــهـدِي ، مـا قـارَعَ الحـقُّ هَـوىً
بـاطلاً يــومـاً ولم يــنـخـذلِ
لا تُـراعـي مـن كَـمِـيٍّ مُـبْـطِلٍ
قُـوَّةُ الحـقّ سـلاحُ الأعـزلِ !
وارْبَئـي أَنْ تَـسْـأَلي ضـارعـةً
نصَفَ مِن (عُـصْـبَـةٍ) لَمْ تَـعْـدِلِ
عَـزَّ هـذا الحـقَ إلا بـدمٍ
جـامـحِ النـزوة حُـرٍّ يَـغْـتـلي
فَـأَرِيـقِـيـهِ رخـيـصـاً هـيِّـنـاً
يـافـلـسـطينُ ، وإلا تـؤكَـلي
أحــرزَ الغـايـةَ مَـنْ حـاوَلَهـا
وحـوى النصرَ الذي لايـأتـلي

*

ليس ما دَوَّى حديثاً أوّلاً
عنكِ . كم مَرَّ له من مَثَلِ !
أيقظ الشجوَ ، فمن قلب هفا
واهنَ العزم ، وجَفنٍ مُسْبِلِ

غيرَ أنّي ، والهوى مختلفٌ ،
سَرّني من حيثُ أحيا مَأْمَلي
كنتُ أخشى ، والقُرى أضحت قِرىً ،
أن تكوني من كريم المأكل
فاذا الدمُ أبِيّاً يغتلي
وإذا الروحُ عزيزاً يعتلي
وإذا القوم الذي أيأسني
جامحُ الثورة ماضي المُنْصُلِ

من شباب كشرارات الغَضا
وشيوخٍ كصَياصي الجبلِ
وعَقِيلات كأمثال الدُّمى
هِجْنَ أمثالَ الأُسود الجُفَّلِ
سِرْنَ صدرَ الصف سِرْباً باسلاً
يتحدّين حِرابَ الجَحْفَل

يـاوَقـاهـا اللهُ أنـفـاسَ الصَّـبـا
كـيـف قـاسَـيْنَ سَـمُـومَ الجُـهَّـلِ ؟
... ...
... ...
إبـشـري . إنّ الصـبـاح المـرتـجـى
- يـافـلسـطينُ - أراه يـنـجـلي
كـيـف لم تـرتـقـبـي مـن فَـرَجٍ ،
وبَـنُـوكِ الصّـيـدُ حِـرزُ المـوئـل ؟
أنـا لا أرجـو ، وهـذا روحُـهـم ،
أن تَـظَلّي تـحـت حـكـم السـفـل
سـنّـةُ اللهِ التـي نـعـهـدُهـا
أن يـكـون النُّـجْـحُ حـظَّ الأمـثـلِ
*
سـاعـفـي (بـغـدادُ) أنـضـاءَ الوغـى
مـن بـنـي العـمّ وراء (الكـرمـلِ)
رَحِـمٌ مـوصـولةٌ أوشـاجُـهـا
لم يـقـطّـعـهـا نـكـالُ الدُّوَلِ
طالمـا رامـوا تـفـاريـقَ العـصـا
والعـصـا تـلقـف كـيـدَ الدَّجـلِ
*

حَيّها جامعةً مَرْجُوَّةً
من تخوم (الريف) حتى (الموصل)
إنّني أَلْمَحُها ظافرةً
تستقلّ التاج منضورَ الحُلي
للعدا اليوم، وهم ينْضُونَهُ
لاتَظِلّ الشمسُ فوقَ «الحَمَلِ» !
وأرى في مطلع الآتي لنا
منزلَ «البدرِ» ومَرْقَى «زُحَلِ»
خَلِّ عنك اليأسَ ينأى جانِباً
ياكَليلَ العزم، واصحَبْ أمَلِي
انطوى الماضي، فلا تنشُرْ له
صُحُفاً نَضّاحةً بالعِلَلِ
وأتى يومك يسعى دائباً
فارْتَقِبْ شارقةَ المستقبَلِ

القادسية الجديدة(*)

أقـدِمْ وصـادِمْ ، إنّـكَ الصَّـدّامُ
يـا (جـيشَ يَـعْـرُبَ) ، والعُـلى الإقـدامُ

... ...
... ...

هـل يُـسْـتـبـاحُ ، وأنْـتَ أنْـتَ ، ليَـعْـرُبٍ
وطَنٌ ؟ وتـرغُـبُ شـعـبَـةٌ الأغْـتـامُ ؟

الحـاقـدون ، وليس ثَـمَّـتَ دافـعٌ
للحـقـدِ إلّا الجـهـلُ والأوهـامُ

مـازال فـيـهـم مـن (مـجـوسَ) بـقـيـةٌ
مـنـهـا قُـعـودٌ بـالحـقـود قِـيـامُ

شَـنِئَـتْ مُـسـالمَـةَ (الهـدى) ، وتـنـكـرت
لأُخُـوّةِ (الإسـلام) ، وَهْـيَ وِئـامُ

(القـادِسّـيـةُ) .. حَـرَّرتْ أعـنـاقَـهُـمْ ،
فـعـلامَ مـنـهـا في الصُّـدُورِ ضِـرامُ ؟!

(فـتـحٌ) .. ولكِـن للحـيـاة سـعـيـدةً ،
تَـهْـنـا بـرَهْـوِ صَـفـائِـهـا الأقـوامُ

(*) مقاطع منها

ليس (التسلُّطُ) مانَحاهُ ، فإنَّهُ
كُفْرٌ ، ومَذْهَبُ قاسِطِينَ ، وذامُ
مَنحَتْ شعوبَهُمُ الحياة وأَمْنَها
ومَراشِدَ (الإسلامِ) وَهْيَ ذِمامُ
أَخْنتْ على عَسْفِ الطغاة ، وطاردتْ
لَجِبَ الظلامِ ، فليس ثَمَّ ظلامُ
العُرْبُ والأعجامُ ، تحتَ لِوائِها
شَرَعٌ ، فلا عُرْبٌ ، ولا أعجامُ
النُّورُ مِلْءُ عُيُونِهم ، والحُبُّ مِلْ
ءُ قُلُوبهِم ، والوَرْدُ ، والأكمامُ
(المزدكيَّةُ) .. لن تقومَ ، ولن تَرَى
(نارَ المجوس) تُسِيغُها الأحلامُ
سائِلْ شُعُوباً ثَمَّ : هل ترضى بها
دِيناً ، ومِلءُ قُلُوبِها (الإسلامُ) ؟
عجباً لأحلام تعود القَهْقرى
بالناس ، لانَظَرٌ ، ولا أَفْهامُ
وتَرُودُها هَوْجاءَ تُفْسِدُ بيْنَهُمْ
رَحِمَ السلام ، فلا يقومُ سلامُ

شَرُّ البـلايـا ، والبَـلايـا جَـمَّـةٌ
شـيـخٌ يُـثـيرُ الشَّرَّ وَهْـوَ أثـامُ
في قـلبـه قـيـحٌ ، وفي أحـلامِـهِ
خَـبَـلٌ ، وفي أفـكـارِهِ إظلامُ
ويُـبـيـحُ قـتـلَ (المـسـلمـين) ، كـأنّـهُ
لم يـأتِـهِ أَنَّ الدِمـاءَ حـرامُ
ويـقـول في بـعض الهُـراءِ مُـخـايـلاً :
إنّـي لكُـلّ المـسـلمـينَ إمـامُ !
إيـهـاً ! أفي نـهـج الإمـامـة والتُّـقـى
تـقـتـيـل من حـفـظوا الصَّـلاةَ وصـامـوا ؟
المـسـلمـين الأبْـريـاءَ ومـا جَـنَـوْا
الآمـنـين بـسِـرْبـهـم قـد نـامُـوا
يُـعْـزِي إذا جَـنَّ الظلامُ حَـوائِـمـاً
النّـارُ حَـشْـوُ حُـمُـولِهـا والسّـامُ
تـأتـي إلى سُـرَرِ البـلادِ عَـوادِيـاً
والنـاسُ في غَـفَـلاتـهـم نُـوّامُ
تُـلْقـي هـنـا وهـنـاك غـيرَ رحـيـمـة
رُجُـمـاً ، بـهـا تـتـمـزّقُ الأجـرامُ

سُبكتْ ، ولكن من لُهابِ ضغائنٍ
وحُقُودِ أفئدة بِهِنّ كِلامُ
عَشْواء .. تخبِطُ عالياً في سافلٍ
فتُغالُ أرواحٌ بها ورِجامُ

لاهاربٌ من طَيْشِها ينجو إذا
رَجَمَتْ ، ولا ثَبْتُ الجَنانِ هُمامُ
يا شعبُ ..!
أنتَ لها ، فصاوِلْ رجْمَها
واثْبُتْ لها وبنفسِك الإقدامُ
واشْحَذْ عَزائِمكَ الصَّرائمَ ، لاتَخِمْ
إنّ الكريمَ مُصاوِلٌ عَزّامُ
ياشعب ! إنّ الجيش دونك صائلٌ
جازَ (الثُّغُورَ) ، وثغرُهُ بَسّامُ
يا جيشُ ..!
أنْزِلْ ضربتينْ بضَرْبةٍ
إنّ اللئامَ دواؤها الإيلامُ !
في العُمْقِ .. غادِ (الغادِرينَ) ، فانّهم
(بَدَؤوا القتالَ) ، فما عليك ملامُ

مَرَّغْ أُنوفَهُمُ .. فإنّ مَعاطساً
باللؤم تشمَخ ، طِبُّها الإرغامُ
أَوْجِعْ وأَوْجِعْ ثُمَّ اوْجِعْ ، رُبما
تصحو العقولُ ، وتَعْقِلُ الأفهامُ
غَنَّيتُ بأسَكَ ، ما عَرَفْتُ تَغَنِّياً
إلّا له ، ولِبأسِكَ الإكرامُ
شَرَفُ (العِراق) . ومَنْ سواك يصونُهُ
ويصولُ وَهْوَ الضَّيْغَمُ الضِرغامُ ؟
مَنْ سافكٌ دَمَهُ لِأجل حياته
أبداً ؟ ومَنْ دِرعٌ له وحُسامُ ؟
طاولتَ أَجْوازَ السماءِ فطُلْتَها .
شَرَفٌ له تتقاصَرُ الأقزام .
مَجَّدْتُ يومَكَ إذْ وَثَبْتَ مُصاوِلاً
وخَطَفْتَ مسلوباً فَريعَ طَغامُ
(الشَّطُّ) ، والنخلُ المضاعفُ ، والحِمَى
زُهِيَتْ خمائِلُها ، وهُنَّ وِسامُ
جَذْلاً بعودتها ، وقد طالت نَوىً
وعلا حنينٌ ، واسْتَحَرَّ أُوامُ

لم تَـعْـدُ بَـغْـيـاً في البِـلاد ، وإنّـمـا
رَدَّتْ سِـهـامَ البَـغْـيِ مـنـك سِـهـامُ
قُـدْهـا فَـيـالِقَ .. مـاتَـنِـي أثْـقـالُهـا
زَحْـفـاً ، ونَـصْـبُ عُـيُـونِـهِـنّ أمـامُ
زَحْـفـاً ، وانـتَ القـاحِـمُ المِـقْـدامُ
وأمـامَ زَحْـفِـك فـارِسٌ «صَـدّامُ»
زَحْـفـاً ، وإنْ رِيـمَ (السَّـلامُ) فـمَـرحَـبـاً
إن (السَـلامَ) هَـوىً لنـا ومَـرامُ
كـنّـا دعـونـا (الحـاقـديـن) لحـكـمِـهِ ،
فـنـزا بـرأس (الحـاقـديـن) عُـرامُ
والآنَ و (النصر) المُـبـينُ حَـلِيـفُـنـا
نَـهْـواهُ أيـضـاً ، والجِـوارُ ذِمـامُ
وشُـعـوبُـهُـم ، والدّيـنُ يـجـمَـعُـنـا بِـهِـمْ ،
إخـوانُـنـا ، والمـسـلمـون كِـرامُ
إنّـا سَـنَـنّـا شـرعـةً حـينَ الورى
فَـوْضَى ، وحـينَ شُـعُـوبُـهُـمْ اخـصـامُ
حَـسُـنَـتْ بنـا (الدنـيـا) ، وأصْـلِحَ نـاسُـهـا
واسـاً (شَـتـاتَ) العـالَمِـينَ (نـظامُ)

٢٦/٩/١٩٨٠



نور ومحمد .. من أحفاده !

الفهرست

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٤٣ لسنة ١٩٨٨

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٨

الغلاف : رياض عبد الكريم
السعر ٧٥٠ فلس

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة